

أخلص العبادة لله وحده حنيفاً أي منحرفاً عن الشرك ولهذا قال ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ وهو معطوف على قوله ﴿وَأَمَرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ .
وقوله ﴿وَإِنْ يَسْأَلْكَ اللَّهُ بَعْضُكَ﴾ الآية فيه بيان لأن الخير والشر والنفع والضر إنما هو راجع إلى الله تعالى وحده لا يشاركه في ذلك أحد فهو الذي يستحق العبادة وحده لا شريك له ، روى الحافظ بن عساكر في ترجمة صفوان بن سليم من طريق عبد الله بن وهب أخبرني يحيى بن أيوب عن عيسى بن موسى عن صفوان بن سليم عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال «اطلبوا الخير دهركم كله وتعرضوا لنفحات ربكم ، فإن الله نفحات من رحمته يصيب بها من يشاء من عباده ، وأسألوه أن يستر عوراتكم ويؤمن روعاتكم» ثم رواه من طريق الليث عن عيسى بن موسى عن صفوان عن رجل من أشجع عن أبي هريرة مرفوعاً بمثله سواء . وقوله ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ أي لمن تاب إليه ولو من أي ذنب كان حتى من الشرك به فإنه يتوب عليه .

قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ وَأَتَّبِعْ مَا يُوْحَىٰ إِلَيْكَ وَأَصْبِرْ حَتَّىٰ يَخُفِّفَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْخَاكِمِينَ ﴿١٠٩﴾

يقول تعالى أمراً لرسوله ﷺ أن يخبر الناس أن الذي جاءهم به من عند الله هو الحق الذي لا مرية فيه ولا شك فمن اهتدى به واتبعه فإنما يعود نفع ذلك الاتباع على نفسه ، ومن ضل عنه فإنما يرجع وبال ذلك عليه ﴿وما أنا عليكم بوكيل﴾ أي وما أنا موكل بكم حتى تكونوا مؤمنين وإنما أنا نذير لكم ، والهداية على الله تعالى وقوله ﴿واتبع ما يوحي إليك واصبر﴾ أي تمسك بما أنزل الله عليك وأوجاه إليك واصبر على مخالفة من خالفك من الناس ﴿حتى يحكم الله﴾ أي يفتح بينك وبينهم ﴿وهو خير الحاكمين﴾ أي خير القاتمين بعدله وحكمته .



قال الحافظ أبو يعلى حدثنا خلف بن هشام البزار حدثنا أبو الأحوص عن أبي إسحاق عن عكرمة قال : قال أبو بكر سألت رسول الله ﷺ ما شريك ؟ قال «شبيثي هود والواقعة وعم يتساءلون وإذا الشمس كورت» وقال أبو عيسى الترمذي حدثنا أبو كريب محمد بن العلاء حدثنا معاوية بن هشام عن شيان عن أبي إسحاق عن عكرمة عن ابن عباس قال : قال أبو بكر يا رسول الله قد شئت قال «شبيثي هود والواقعة والمرسلات وعم يتساءلون وإذا الشمس كورت» وفي رواية «هود وأخواتها» وقال الطبراني حدثنا عبدان بن أحمد حدثنا حجاج بن الحسن حدثنا سعيد بن سلام حدثنا عمر بن محمد عن أبي حازم عن سهل بن سعد قال : قال رسول الله ﷺ «شبيثي هود وأخواتها : الواقعة والهاقة وإذا الشمس كورت» وفي رواية «هود وأخواتها» وقد روي من حديث ابن مسعود نحوه فقال الحافظ أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني في معجمه الكبير حدثنا محمد بن عثمان بن أبي شيبة حدثنا أحمد بن طارق الرايشي حدثنا عمرو بن ثابت عن أبي إسحاق عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن أبا بكر قال يا رسول الله ما شريك ؟ قال «هود والواقعة» . عمرو بن ثابت متروك وأبو إسحاق لم يدرك ابن مسعود والله أعلم .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرَّكُنَيبُ أَحْكَمَتْ ءِإِنَّهُمْ ثُمَّ فَضَّلَتْ مِنْ لَدُنِّ حَكِيمٍ خَيْرٍ ﴿١﴾ أَلَا تَتَّقُونَ ءِإِلَّا اللَّهُ ءِإِنِّي لَكُمْ مَنذُورٌ وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾ وَأَنْ أَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مَنَّا حَسَنًا ءِإِلَٰكُمْ مُسْمًى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ ءِوَأَنْ تَوَلَّوْا فِي أَحَافٍ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤﴾

قد تقدم الكلام على حروف الهجاء في أول سورة البقرة بما أغنى عن إعادته هنا وبالله التوفيق ، وأما قوله ﴿أحكمت آياته ثم فصلت﴾ أي هي محكمة في لفظها مفصلة في معناها فهو كامل صورة ومعنى ، هذا معنى ما روي عن مجاهد وقادة واختاره ابن جرير ومعنى قوله ﴿من لدن حكيم خبير﴾ أي من عند الله الحكيم في أقواله وأحكامه خبير بعواقب الأمور ﴿ألا تعبدوا إلا الله﴾ أي نزل هذا القرآن المفصل لعبادة الله وحده لا شريك له كقوله تعالى : ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون﴾ وقال ﴿ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت﴾ وقوله ﴿انتي لكم منه نذير وبشير﴾ أي إني لكم نذير من العذاب إن خالفتموه ، وبشير بالثواب إن اطعتموه كما جاء في الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ صعد الصفا فدعا بطون قريش الأقرب ثم الأقرب فاجتمعوا فقال «يا معشر قريش أرايتم لو أخبرتكم أن خيلا تصبحكم الستم مصدقي ؟» فقالوا ما جربنا عليك كذبا قال «فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد» وقوله ﴿وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتكم متاعا حسنا إلى أجل مسمى ويؤت كل ذي فضل فضله﴾ أي وأمركم بالاستغفار من الذنوب السالفة والتوبة منها إلى الله عز وجل فيما تستقبلونه ، وإن تستمروا على ذلك ﴿يتمكم متاعا حسنا﴾ أي في الدنيا ﴿إلى أجل مسمى ويؤت كل ذي فضل فضله﴾ أي في الدار الآخرة قاله قتادة كقوله ﴿من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنجينه حياة طيبة﴾ الآية .

وقد جاء في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال لسعد «وانك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا أجرت بها حتى ما تجعل في في امرأتك» وقال ابن جرير حدثني المسيب بن شريك عن أبي بكر عن سعيد بن جبير عن ابن مسعود رضي الله عنه في قوله ﴿ويؤت كل ذي فضل فضله﴾ قال من عمل سيئة كتبت عليه سيئة ومن عمل حسنة كتبت له عشر حسنات فإن عوقب بالسيئة التي كان عملها في الدنيا بقيت له عشر حسنات وإن لم يعاقب بها في الدنيا أخذ من الحسنات العشر واحدة وبقيت له تسع حسنات ، ثم يقول هلك من غلب أحاده على أعشاره ، وقوله ﴿وإن تولوا فإني أخاف عليكم عذاب يوم كبير﴾ هذا تهديد شديد لمن تولى عن أوامر الله تعالى وكذب رسله فإن العذاب يناله يوم القيامة لا محالة ﴿إلى الله مرجعكم﴾ أي معادكم يوم القيامة ﴿وهو على كل شيء قدير﴾ أي هو القادر على ما يشاء من إحسانه إلى أوليائه وانتقامه من أعدائه ، وإعادة الخلائق يوم القيامة ، وهذا مقام الترهيب كما أن الأول مقام ترغيب .

أَلَا إِنَّهُمْ يَأْتُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَحِينَ يَسْتَعِشُونَ رَبَّهُمْ بَعْلَمَ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُمْ عَلَىٰ غَيْرِ بَدَاتٍ

الْصُّدُورِ

قال ابن عباس كانوا يكرهون أن يستقبلوا السناء بفروجهم وحال وقاعهم فأنزل الله هذه الآية ، روى البخاري من طريق ابن جريج عن محمد بن عباد بن جعفر أن ابن عباس قرأ ألا إنهم تتنون صدورهم ، الآية فقلت يا أبا العباس ما تتنون صدورهم ؟ قال الرجل كان يجامع امراته فيستحي أو يتخل فيستحي فنزلت : ﴿ألا إنهم يتنون صدورهم﴾ . وفي لفظ آخره قال ابن عباس أناس كانوا يستحيون أن يتخلوا فيفضوا إلى السناء وأن يجامعوا نساءهم فيفضوا إلى السناء فنزل ذلك فيهم ثم قال : حدثنا الحميدي حدثنا سفيان حدثنا عمرو قال قرأ ابن عباس : ﴿ألا إنهم تتنون صدورهم ليستخفوا منه ألا حين يستغشون ثيابهم﴾ .

قال البخاري وقال غيره عن ابن عباس ﴿يستغشون﴾ يغطون رؤسهم ، وقال ابن عباس في رواية أخرى في تفسير هذه الآية يعني به الشك في الله وعمل السيئات وكذا روي عن مجاهد والحسن وغيرهم أي أنهم كانوا يتنون صدورهم إذا قالوا شيئا أو عملوه فيظنون أنهم يستخفون من الله بذلك فأخبرهم الله تعالى أنهم حين يستغشون ثيابهم عند مناهمهم في ظلمة الليل ﴿يعلم ما يسرون﴾ من القول ﴿وما يعلنون﴾ إنه عليهم بذات الصدور أي يعلم ما تكن صدورهم من النيات والضمائر والسرائر ، وما أحسن ما قال زهير بن أبي سلمى في معلقته المشهورة :

فلا نكتمن الله ما في قلوبكم ليخفى ومهها يكتم الله يعلم
يؤخر فيوضع في كتاب فيدخر ليوم حساب أو يعجل فينقم

فقد اعترف هذا الشاعر الجاهلي بوجود الصانع وعلمه بالجزئيات وبالمعاد وبالجزاء وبكتابة الأعمال في الصحف ليوم القيامة ، وقال عبد الله بن شداد : كان أحدهم إذا مر برسول الله ﷺ ثنى عن صدره وغطى رأسه فأنزل الله ذلك ، وعود الضمير إلى الله أولى لقوله ﴿ألا حين يستغشون ثيابهم يعلم ما يسرون وما يعلنون﴾ وقرأ ابن عباس ألا إنهم تتنون

صدورهم برفع الصدور على الفاعلية وهو قريب المعنى .

﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ ٦

أخبر تعالى أنه متكفل بأرزاق المخلوقات من سائر دواب الأرض صغيرها وكبيرها بحريها وبريها وأنه يعلم مستقرها ومستودعها أي يعلم أين تنتهي سيرها في الأرض وأين تأوي إليه من وكرها ومن مستودعها ، وقال علي بن أبي طلحة وغيره عن ابن عباس ﴿ ويعلم مستقرها ﴾ أي حيث تأوي ﴿ ومستودعها ﴾ حيث تموت ، وعن مجاهد ﴿ مستقرها ﴾ في الرحم ﴿ ومستودعها ﴾ في الصلب كالتي في الأنعام ، وكذا روي عن ابن عباس والضحاك وجماعة ، وذكر ابن أبي حاتم أقوال المفسرين هنا كما ذكره عند تلك الآية فالله أعلم . وأن جميع ذلك مكتوب في كتاب عند الله مبين عن جميع ذلك كقوله ﴿ وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ما فرطنا في الكتاب من شيء ثم إلى ربهم يحشرون ﴾ وقوله ﴿ وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو ، ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين ﴾ .

﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِنْ قُلْتُمْ لَكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِسْحَارٌ مِمَّنْ يَسْخَرُونَ ﴾ ٧ ﴿ وَلَئِنْ أَخْرَأَكَ عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا مَحْبِيسُهُ ۗ الْيَوْمَ بِأَنفُسِهِمْ أَصْفَرُوا ﴾ ٨

يجبر تعالى عن قدرته على كل شيء وأنه خلق السموات والأرض في ستة أيام وأن عرشه كان على الماء قبل ذلك كما قال الإمام أحمد : حدثنا أبو معاوية حدثنا الأعمش عن جامع بن شداد عن صفوان بن محرز عن عمران بن حصين قال : قال رسول الله ﷺ ﴿ اقبلوا البشري يا بني تميم ﴾ قالوا قد بشرتنا ، فأعطنا ، قال واقبلوا البشري يا أهل اليمن قالوا قد قبلنا . فأخبرنا عن أول هذا الأمر كيف كان ؟ قال وكان الله قبل كل شيء ، وكان عرشه على الماء ، وكتب في اللوح المحفوظ ذكر كل شيء ، قال : فأتاني أت فقال يا عمران انحلت ناقتك من عقاها ، قال فخرجت في إثرها فلا أتري ما كان بعدي ، وهذا الحديث مخرج في صحيح البخاري ومسلم بالفاظ كثيرة فمنها قالوا جئناك نسألك عن أول هذا الأمر فقال وكان الله ولم يكن شيء قبله - وفي رواية غيره - وفي رواية معه - وكان عرشه على الماء وكتب في الذكر كل شيء ، ثم خلق السموات والأرض .

وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : قال رسول الله ﷺ ﴿ إن الله قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة وكان عرشه على الماء ﴾ وقال البخاري في تفسير هذه الآية : حدثنا أبو اليمان أخبرنا شعيب أخبرنا أبو الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال ﴿ قال الله عز وجل انفق انفق عليك ﴾ وقال يد الله ملأى لا يغيضها نفقة ، سحاه الليل والنهار ﴾ وقال ﴿ أفرايتم ما انفق منذ خلق السموات والأرض فإنه لم يغيض ما في يمينه وكان عرشه على الماء ، ويبيد الميزان يخفض ويرفع ﴾ .

وقال الإمام أحمد : حدثنا يزيد بن هارون أخبرنا حماد بن سلمة عن يعلى بن عطاء عن وكيع بن عدس عن عمه أبي رزين واسمه لقيط بن عامر بن المتفق العقيلي قال : قلت يا رسول الله أين كان ربنا قبل أن يخلق خلقه قال ﴿ كان في عواء ما تحته هواء وما فوقه هواء ، ثم خلق العرش بعد ذلك ﴾ وقد رواه الترمذي في التفسير وابن ماجه في السنن من حديث يزيد بن هارون وقال الترمذي هذا حديث حسن ، وقال مجاهد ﴿ وكان عرشه على الماء ﴾ قبل أن يخلق شيئا ، وكذا قال وهب بن منبه وضمرة وقتادة وابن جرير وغير واحد ، وقال قتادة في قوله ﴿ وكان عرشه على الماء ﴾ يبتئكم كيف كان بدء خلقه قبل أن يخلق السموات والأرض ، وقال الربيع بن أنس ﴿ وكان عرشه على الماء ﴾ فلما خلق السموات والأرض قسم ذلك الماء قسمين فجعل نصفاً تحت العرش وهو البحر المسجور .

وقال ابن عباس إنما سمي العرش عرشاً لارتفاعه ، وقال إسماعيل بن أبي خالد سمعت سعداً الطائي يقول :

العرش ياقوته حراء ، وقال محمد بن إسحاق في قوله تعالى : ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ فكان كما وصف نفسه تعالى إذ ليس إلا الماء وعليه العرش وعلى العرش ذو الجلال والاکرام ، والعرزة والسلطان ، والملك والقدرة ، والخلع والعلم ، والرحمة والنعمة الفعال لما يريد ؛ وقال الأعمش عن المنهال بن عمرو عن سعيد بن جبیر قال : سئل ابن عباس عن قول الله ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ على أي شيء كان الماء ؟ قال على متن الريح ، وقوله تعالى : ﴿لِيَلْبِوَكُمْ أَيْكُمُ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ أي خلق السموات والأرض لنفع عباده الذين خلقهم ليعبدوه ولا يشركوا به شيئاً ولم يخلق ذلك عبثاً كقوله ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ النَّارِ﴾ وقال تعالى : ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم ﴿وقال تعالى : ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ الآية وقوله ﴿لِيَلْبِوَكُمْ﴾ أي ليختبركم ﴿أَيْكُمُ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ ولم يقل أكثر عملاً ، بل أحسن عملاً ولا يكون العمل حسناً حتى يكون خالصاً لله عز وجل على شريعة رسول الله ﷺ فنسى فقد العمل واحداً من هذين الشرطين حبط وبطل .

وقوله ﴿وَلَنْ نَقُولَ لَكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ﴾ الآية يقول تعالى ولئن أخبرت يا محمد هؤلاء المشركين أن الله سيعيثنهم بعد مماتهم كما بدأهم مع أنهم يعلمون أن الله تعالى هو الذي خلق السموات والأرض كما قال تعالى : ﴿وَلَنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لِيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ ﴿وَلَنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لِيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ وهم مع هذا ينكرون البعث والمعاد يوم القيامة الذي هو بالنسبة إلى القدرة أهون من البذاءة كما قال تعالى : ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ وقال تعالى : ﴿مَا خَلَقْكُمْ وَلَا بِعَثْمِكُمْ إِلَّا كُفْؤًا وَتَوَفُّهُمُ﴾ إن هذا إلا سحر مبين ﴿أَي يَقُولُونَ كَفَرُوا وَعِنَادًا مَا نَصَدَقْنَاكَ عَلَى تَوَفُّعِ الْبَعْثِ ، وَمَا يَذْكُرُ ذَلِكَ إِلَّا مَنْ سَحَرْتَهُ فَهُوَ يَتَّبِعُكَ عَلَى مَا تُقُولُ ، وَقَوْلُهُ ﴿وَلَنْ أَخْرَجْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ﴾ الآية . يقول تعالى ولئن أخبرنا العذاب والمؤاخظة عن هؤلاء المشركين إلى أجل معدود وأمد محصور وأوعدناهم إلى مدة مضروبة ليقولن تكذيباً واستعجالاً ، ما يجسه أي يؤخر هذا العذاب عنا فإن سجاياهم قد ألفت التكذيب والشك فلم يبق لهم محيص عنه ولا محيد والأمة تستعمل في القرآن والسنة في معان متعددة فيراد بها الأمد كقوله في هذه الآية ﴿إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ﴾ .

وقوله في يوسف ﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهَا إِذْ ذَكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ وتستعمل في الإمام المقتدى به كقوله ﴿إِنْ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانَتْ أَتَى حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ وتستعمل في الملة والدين كقوله اخباراً عن المشركين إنهم قالوا ﴿وَإِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ وتستعمل في الجماعة كقوله ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ﴾ وقوله ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ وَعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ وقال تعالى : ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قَضَى بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يظْلُمُونَ﴾ والمراد من الأمة هنا الذين يبعث فيهم الرسول مؤمنهم وكافرهم كما في صحيح مسلم «والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني لا يؤمن بي إلا دخل النار» وأما أمة الأتباع فهم المصدقون للرسل كما قال تعالى : ﴿كُتِّمَ خَيْرٌ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ وفي الصحيح «فأقول أمي أمي» وتستعمل الأمة في الفرق والطائفة كقوله تعالى : ﴿وَمَنْ قَوْمُ مُوسَى أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ وكقوله ﴿مَنْ أَهْلُ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ﴾ الآية .

وَلَيْنَ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَشْكُرُ كَفُورًا ﴿١﴾ وَلَيْنَ أَذَقْنَاهُ نِعْمَةً بَعْدَ ضَرْبَةٍ

مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحَ فَخُورًا ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ

وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾

يخبر تعالى عن الانسان وما فيه من الصفات الذميمة إلا من رحم الله من عباده المؤمنين أنه إذا أصابته شدة بعد نعمة حصل له يأس وقنوط من الخير بالنسبة إلى المستقبل وكفر وجحود لماضي الحال كأنه لم ير خيراً ولم يرج بعد ذلك فرجاً . وهكذا إن أصابته نعمة بعد نعمة ﴿ليقولن ذهب السيئات عني﴾ أي يقول ما ينالني بعد هذا ضيم ولا سوء ﴿إنه لفرح فخور﴾ أي فرح بما في يده بطرف فخور على غيره ، قال الله تعالى : ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ أي على الشدائد والمكاره ﴿وعملوا الصالحات﴾ أي في الرخاء والمعافية ﴿أولئك هم مغفرة﴾ أي بما يصيبهم من الضراء ﴿وأجر كبير﴾ بما أسلفوه في زمن الرخاء كما جاء في الحديث «والذي نفسي بيده لا يصيب المؤمن هم ولا غم ولا نصب ولا وهب ولا حزن حتى

الشوكة يشاكها إلا كفر الله عنه بها من خطاياها» وفي الصحيحين «والذي نفسي بيده لا يقضي الله للمؤمن قضاء إلا كان خيراً له إن أصابته سراء فشكر كان خيراً له ، وإن أصابته ضراء فصبر كان خيراً له ، وليس ذلك لأحد غير المؤمن» وهذا قال الله تعالى ﴿والمصر إن الإنسان لفي خسر • إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر﴾ وقال تعالى : ﴿إن الإنسان خلق هلوعاً﴾ الآيات .

فَلَمَّا تَرَكَ بَعْضُ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا تَوَلَّىٰ نَزَّلْنَا آيَاتِنَا عَلَيْكَ كَنزًا أَوْجَاهًا
مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ أَفَنَزَّلَهُ اللَّهُ فُلًا فَأَتَانَا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيًّا
وَأَدْعُوا مَنْ أَسْتَفْعَمَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِنَّمَا يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَأَعْلَمُوا إِنَّمَا آتَانَا أَنْزَلَ يَعْلَمُ اللَّهُ وَأَنْ لَا إِلَهَ
إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٤﴾

يقول تعالى مسلبياً لرسوله ﷺ عما كان يتعنت به المشركون فيما كانوا يقولونه عن الرسول كما أخبر تعالى عنهم في قوله ﴿وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق؟ لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيراً • أو يلقي إليه كنز أو تكون له جنة يأكل منها وقال الظالمون إن تتبعون إلا رجلاً مسحوراً﴾ فأمر الله تعالى رسوله صلوات الله وسلامه عليه وأرشده إلى أن لا يضيق بذلك منهم صدره ولا يصدنه ذلك ولا يشينه عن دعائهم إلى الله عز وجل أثناء الليل وأطراف النهار كما قال تعالى : ﴿ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون﴾ الآية ، وقال ههنا ﴿فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك وضائق به صدرك أن يقولوا﴾ أي لقولهم ذلك وإنما أنت نذير ولك أسوة بإخوانك من الرسل قبلك فإنهم كذبوا وأردوا فصبروا حتى أتاهم نصر الله عز وجل ، ثم بين تعالى إعجاز القرآن وأنه لا يستطيع أحد أن يأتي بمثله ولا بعشر سور مثله ولا بسورة من مثله لأن كلام الرب تعالى لا يشبه كلام المخلوقين كما أن صفاته لا تشبه صفات المحدثات . وذاته لا يشبهها شيء تعالى وتقدس وتنزه لا إله إلا هو ولا رب سواه ثم قال تعالى : ﴿فإن لم يستجيبوا لكم﴾ فإن لم يأتوا بمعارضة ما دعوتهم إليه فاعلموا أنهم عاجزون عن ذلك وأن هذا الكلام منزل من عند الله متضمن علمه وأمره ونبيه ﴿وأن لا إله إلا هو فهل أنتم مسلمون﴾ .

مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهَرَفَ بِهَا لَا يَتُخْشُونَ ﴿١٥﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ
إِلَّا النَّارُ وَحِطَّ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَدِّلُوا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾

قال العوفي عن ابن عباس في هذه الآية إن أهل الرياء يعطون بحسناتهم في الدنيا وذلك أنهم لا يظلمون نقيراً يقول من عمل صالحاً التماس الدنيا صوماً أو صلاة أو تهجداً بالليل لا يعملها إلا التماس الدنيا يقول الله تعالى : أوفيه الذي التمس في الدنيا من المثابة وحيط عمله الذي كان يعمله لالتماس الدنيا وهو في الآخرة من الخاسرين : وهكذا روي عن مجاهد والضحاك وغير واحد ، وقال أنس بن مالك والحسن : نزلت في اليهود والنصارى ، وقال مجاهد وغيره نزلت في أهل الرياء ، وقال قتادة من كانت الدنيا همه ونيته وطلبته جزاءه الله بحسناته في الدنيا ثم يفضى إلى الآخرة وليس له حسنة يعطى بها جزاء وأما المؤمن فيجازى بحسناته في الدنيا ويناب عليها في الآخرة ، وقد ورد في الحديث المرفوع نحو من هذا ، وقال تعالى : ﴿من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموماً مدحوراً • ومن أراد الآخرة وسعيها فما سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً • كلا ثمذ هؤلاء هؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظوراً • انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً﴾ وقال تعالى : ﴿من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له في الآخرة من نصيب﴾ .

أَقْمَنَ كَانَ عَلَى بَيْتِنَا مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمَنْ قَبْلَهُ كَتَبَ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾

يجري تعالى عن حال المؤمنين الذين هم على فطرة الله تعالى التي فطر عليها عباده من الاعتراف له بأنه لا إله إلا هو كما قال تعالى : ﴿ فَأَقْمِ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ الآية وفي الصحيحين عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تولد البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء ؟ » الحديث . وفي صحيح مسلم عن عياض بن حماد عن رسول الله ﷺ قال « يقول الله تعالى إني خلقت عبادي حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم ، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانا ، وفي المسند والسنن « كل مولود يولد على هذه الفطرة حتى يعرب عنه لسانه الحديث ، فالمؤمن باق على هذه الفطرة ، وقوله ﴿ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ ﴾ أي وجاءه شاهد من الله وهو ما أوحاه إلى الأنبياء من الشرائع المطهرة المكملة المعظمة المختمة بشرية محمد صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين . ولهذا قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة وأبو العالية والضحاك وإبراهيم النخعي والسدي وغير واحد في قوله تعالى : ﴿ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ ﴾ إنه جبريل عليه السلام .

وعن علي رضي الله عنه والحسن وقتادة هو محمد ﷺ وكلاهما قريب في المعنى لأن كلا من جبريل ومحمد صلوات الله عليهما بلغ رسالة الله تعالى فجبريل إلى محمد ومحمد إلى الأمة ، وقيل هو علي وهو ضعيف لا يثبت له قائل الأول والثاني هو الحق ، وذلك أن المؤمن عنده من الفطرة ما يشهد للشريعة من حيث الجملة والتفاصيل تؤخذ من الشريعة والفطرة تصدقها وتؤمّن بها ، ولهذا قال تعالى : ﴿ أَقْمَنَ كَانَ عَلَى بَيْتِنَا مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ ﴾ وهو القرآن بلغه جبريل إلى النبي ﷺ وبلغه النبي محمد ﷺ إلى أمته ، ثم قال تعالى : ﴿ وَمَنْ قَبْلَهُ كَتَبَ مُوسَى ﴾ أي ومن قبل القرآن كتاب موسى وهو التوراة ﴿ إِمَامًا وَرَحْمَةً ﴾ أي أنزله الله تعالى إلى تلك الأمة إماما لهم وقُدوة يقتدون بها ورحمة من الله بهم فمن آمن بها حق الإيمان قاده ذلك إلى الإيمان بالقرآن ، ولهذا قال تعالى : ﴿ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ ثم قال تعالى متوعدا لمن كذب بالقرآن أو بشيء منه ﴿ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ ﴾ أي ومن كفر بالقرآن من سائر أهل الأرض ومشرِكهم وكافرهم وأهل الكتاب وغيرهم من سائر طوائف بني آدم على اختلاف ألوانهم وأشكالهم وأجناسهم ممن بلغه القرآن كما قال تعالى : ﴿ لَأَنْذَرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ ﴾ وقال تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ وقال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ ﴾ .

وفي صحيح مسلم من حديث شعبة عن أبي بشر عن سعيد بن جبير عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال « والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي أو نصراني ثم لا يؤمن بي إلا دخل النار » وقال أيوب السخيتاني عن سعيد بن جبير قال : كنت لا أسمع بحديث عن النبي ﷺ على وجهه إلا وجدت مصداقه أو قال تصديقه في القرآن فبلغني أن النبي ﷺ قال « لا يسمع بي أحد من الأمة يهودي ولا نصراني فلا يؤمن بي إلا دخل النار » فجعلت أقول أين مصداقه في كتاب الله ؟ قال وقلنا سمعت عن رسول الله ﷺ إلا وجدت له تصديقا في القرآن حتى وجدت هذه الآية ﴿ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ ﴾ قال من الملل كلها وقوله ﴿ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ ﴾ الآية ، أي القرآن حق من الله لا مرية ولا شك فيه كما قال تعالى : ﴿ أَلَمْ نَنْزِلِ الْكِتَابَ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ وقال تعالى : ﴿ أَلَمْ ذَلِكَ الْكِتَابَ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ وقوله ﴿ وَلَكِنْ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ كقولته تعالى : ﴿ وَمَا أَكْثَرَ النَّاسَ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ وقال تعالى : ﴿ وَإِنْ تَطَعْ أَكْثَرُ مِنْ فِي الْأَرْضِ يَضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ أَقْرَأَ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى

رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٨﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿١٩﴾

أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ يُضْعِفُ لَهُمْ الْعَذَابَ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ

السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَأَجْرَمَ أَنَّهُمْ
 فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْآخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾

يبين تعالى حال المفتريين عليه وفضيحتهم في الدار الآخرة على رؤوس الخلائق من الملائكة والرسل والأنبياء وسائر البشر والجان كما قال الإمام أحمد حدثنا بهز وعفان قالوا أخبرنا ممام حدثنا قتادة عن صفوان بن محرز قال : كنت آخذاً بيد ابن عمر إذ عرض له رجل قال كيف سمعت رسول الله ﷺ يقول في النجوى يوم القيامة ؟ قال سمعته يقول «إن الله عز وجل يدني المؤمن فيضع عليه كفه ويستره من الناس ويفرره بذنوبه ويقول له أتعرف ذنب كذا ؟ أتعرف ذنب كذا ؟ أتعرف ذنب كذا ؟ حتى إذا قرره بذنوبه ورأى في نفسه أنه قد هلك قال فإنني قد سترتها عليك في الدنيا وإني أغفرها لك اليوم» ثم يعطى كتاب حسناته ، وأما الكفار والمنافقون فيقول ﴿الاشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين﴾ الآية أخرجه البخاري ومسلم في الصحيحين من حديث قتادة به وقوله ﴿الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً﴾ أي يردون الناس عن اتباع الحق وسلوك طريق الهدى الموصلة إلى الله عز وجل ويمجنونهم الجنة ﴿ويبغونها عوجاً﴾ أي ويريدون أن يكون طريقهم عوجاً غير معتدلة ﴿وهم بالآخرة هم كافرون﴾ أي جاحدون بها مكذبون بوقوعها وكونها ﴿أولئك لم يكونوا معجزين في الأرض وما كان لهم من دون الله من أولياء﴾ أي بل كانوا تحت قهره وغلبيه وفي قبضته وسلطانه وهو قادر على الانتقام منهم في الدار الدنيا قبل الآخرة ﴿ولكن يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار﴾ .

وفي الصحيحين «إن الله ليملئ للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته» ولهذا قال تعالى : ﴿يضاعف لهم العذاب﴾ الآية أي يضاعف عليهم العذاب ، وذلك أن الله تعالى جعل لهم سمعاً وأبصاراً وأفئدة كما أغفى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم بل كانوا صماً عن سماع الحق عمياً عن اتباعه كما أخبر تعالى عنهم حين دخولهم النار كقوله ﴿وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير﴾ وقال تعالى : ﴿الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذاباً فوق العذاب﴾ الآية ، ولهذا يعذبون على كل أمر تركوه وعلى كل نهي ارتكبهوه ولهذا كان أصح الأقوال أنهم مكلفون بفروع الشرائع أمرها ونهيها بالنسبة إلى الدار الآخرة وقوله ﴿أولئك الذين خسروا أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون﴾ أي خسروا أنفسهم لأنهم أدخلوا نار حامية فهم معذبون فيها لا يفترون عنهم من عذابها طرفه عين كما قال تعالى : ﴿كلما خبت زدناهم سعيراً﴾ ﴿وضل عنهم﴾ أي ذهب عنهم ﴿ما كانوا يفترون﴾ من دون الله من الأنداد والأصنام فلم نجد عنهم شيئاً بل ضرهم كل الضرر كما قال تعالى : ﴿وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين﴾ .

وقال تعالى : ﴿واتخذوا من دون الله الهة ليكونوا لهم عزاً كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضداً﴾ وقال الخليل لقومه ﴿إنما اتخذتم من دون الله آوثاناً مودة بينكم في الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضاً ومأواكم النار وما لكم من ناصرين﴾ وقوله ﴿إذ تبارأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب﴾ إلى غير ذلك من الآيات الدالة على خسرتهم ودمارهم ولهذا قال ﴿لا جرم أنهم في الآخرة هم الآخرون﴾ يجبر تعالى عن ما هم أنهم أخسر الناس صفقة في الدار الآخرة لأنهم استبدلوا الدركات عن الدرجات ، واعتاضوا عن نعيم الجنان بحميم أن وعن شرب الرحيق المختوم بسوم وحميم وظل من مجوم وعن الحور العين بطعام من غسيل وعن القصور العالية بالهاوية ، وعن قرب الرحمن ، ورؤيته بغضب الديان وعقوبته ، فلا جرم أنهم في الآخرة هم الآخرون .

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٣﴾ ﴿مَثَلُ
 الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصْمَىٰ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾

لما ذكر تعالى حال الأشقياء نبي بذكر السعداء وهم الذين آمنوا وعملوا الصالحات فأمنت قلوبهم وعملت جوارحهم الأعمال الصالحة قولاً وفعلاً من الإتيان بالطاعات وترك المنكرات وبهذا ورثوا الجنات ، المشتعلة على الغرف العاليات ، والسرر المصفوفات ، والقطوف الدانيات ، والفرش المرتفعت والحسان الخيرات ، والفواكه المتنوعات ، والمأكلة المشتهيات والمشارب المستلذات ، والنظر إلى خالق الأرض والسماوات ، وهم في ذلك خالدون لا يموتون ولا يهرمون ولا يمرضون ولا

ينامون ولا يتفطون ولا يصقون ولا يتمخطون ؛ إن هو إلا رشح مسك يعرفون ؛ ثم ضرب تعالى مثل الكافرين والمؤمنين فقال ﴿مثل الفريقين﴾ أي الذين وصفهم أولاً بالشقاء والمؤمنين بالسعادة فأولئك كالأعمى والأصم وهؤلاء كالبصير والسميع ، فالكافر أعمى عن وجه الحق في الدنيا والآخرة لا يهتدي إلى خير ولا يعرفه ؛ أصم عن سماع الحجج فلا يسمع ما ينتفع به ﴿ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم﴾ الآية .

وأما المؤمن ففطن ذكي لبيب بصير بالحق يميز بينه وبين الباطل فينبغ الخير ويترك الشر سميع للحجة يفرق بينها وبين الشبهة فلا يروج عليه باطل ، فهل يستوي هذا وهذا ؟ ﴿أفلا تذكرون﴾ أفلا تعتبرون فتفرون بين هؤلاء وهؤلاء كما قال في الآية الأخرى ﴿لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون﴾ وكقوله ﴿وما يستوي الأعمى والبصير ولا الظلمات ولا النور ولا الظل ولا الحرور وما يستوي الأحياء ولا الأموات ، إن الله يسمع من يشاء وما أنت بمسمع من في القبور * إن أنت إلا نذير إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً وإن من أمة إلا خلا فيها نذير﴾ .

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِذِ اتَّبَعُوا آلَ لُوطٍ وَإِنَّا لَنَرِيهِمْ عَنِ آلِ لُوطٍ غَوَّابِينَ ﴿١٦٦﴾
 ﴿١٦٧﴾ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشْرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا لِنَاكِحِي
 الرَّأْيِ وَمَا نَرِي لَكَ عَلَيْنَا مِثْلَ بَلِّ نَضْحَكٍ ﴿١٦٧﴾

بحر تعالى عن نوح عليه السلام وكان أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض من المشركين عبدة الأصنام أنه قال لقومه ﴿إني لكم نذير مبين﴾ أي ظاهرة النذارة لكم من عذاب الله إن أنتم عبدتم غير الله ، ولهذا قال ﴿أن لا تعبدوا إلا الله﴾ وقوله ﴿إني أخاف عليكم عذاب يوم اليم﴾ أي إن استمررتم على ما أنتم عليه عذبكم الله عذاباً أليماً موجعاً شاقاً في الدار الآخرة ﴿فقال الملا الذين كفروا من قومه﴾ والملا هم السادة والكبراء من الكافرين منهم ﴿ما نراك إلا بشراً مثلاً﴾ أي لست بملك ولكنك بشر فكيف أوحى إليك من دوننا ثم ما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا كالباعة والحاكمة وأشباههم ولم يتبعك الأشراف ولا الرؤساء منا ثم هؤلاء الذين اتبعوك لم يكن عن ترو منهم ولا فكر ولا نظر بل بمجرد ما دعوتهم أجابوك فاتبعوك ولهذا قالوا ﴿وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي﴾ أي في أول بادية ﴿وما نرى لكم علينا من فضل﴾ يقولون ما رأينا لكم علينا فضيلة في خلق ولا خلق ولا رزق ولا حال لما دخلتم في دينكم هذا ﴿بل نظنكم كاذبين﴾ أي فيما تدعونكم لكم من البر والصلاح والعبادة والسعادة في الدار الآخرة إذ صرتم إليها ، هذا اعتراض الكافرين على نوح عليه السلام وأتباعه وهو دليل على جهلهم وقلة عملهم وعقلهم فإنه ليس بعار على الحق رذالة من اتبعه ، فإن الحق في نفسه صحيح سواء اتبعه الأشراف أو الأراذل بل الحق الذي لا شك فيه أن اتباع الحق هم الأشراف ولو كانوا فقراء والذين يابونه هم الأراذل ولو كانوا أغنياء ثم الواقع غالباً أن ما يتبع الحق ضعفاء الناس ، والغالب على الأشراف والكبراء مخالفته كما قال تعالى : ﴿وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون﴾ .

ولما سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان صخر بن حرب عن صفات النبي ﷺ قال له فيما قال : أشراف الناس اتبعوه أو ضعفاؤهم ؟ قال بل ضعفاؤهم . فقال هرقل هم أتباع الرسل ، وقولهم بادي الرأي ليس بمذمة ولا عيب لأن الحق إذا وضع لا يبقى للرأي ولا للفكر مجال بل لا بد من اتباع الحق والحالته هذه لكل ذي زكاء وذكاء بل لا يفكر ههنا إلا غبي أو عبي ، ولرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين إنما جاءوا بأمر جلي واضح . وقد جاء في الحديث أن رسول الله ﷺ قال ﴿ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت له كبوة غير أبي بكر فإنه لم يتلعثم أي ما تردد ولا تروى لأنه رأى أمراً جلياً عظيماً واضحاً فبادر إليه وسارع وقوله : وما نرى لكم علينا من فضل هم لا يرون ذلك لأنهم عمي عن الحق لا يسمعون ولا يبصرون بل هم في ريبهم يترددون في ظلمات الجهل يعمهون وهم الأفاكون الكاذبون الأقلون الأراذلون وهم في الآخرة هم الأخسرون .

فَإِن يَفْقَهُوْا رَبَّهُمْ إِنَّمَا كُنْتُ عَلَيْهِمْ قَوْلًا مِّن رَّبِّي وَإِنَّ النَّبِيَّ لَمِنْ رَحْمَةِ رَبِّي وَأَنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ الَّذِينَ يَحْكُمُونَ أَمْرًا غَيْبِيًّا ﴿١٦٨﴾

يقول تعالى مخبراً عما ردد به نوح على قومه في ذلك ﴿أرأيتم إن كنت على بينة من ربي﴾ أي على يقين وأمر جللي ونبوة صادقة وهي الرحمة العظيمة من الله به وبهم ﴿فعميت عليكم﴾ أي خفيت عليكم فلم تهتدوا إليها ولا عرفتم قدرها بل بادرتم إلى تكذيبها ورددها ﴿أنزلكموها﴾ أي نفضبكم بقبولها وأنتم لها كارهون .

وَيَقُولُوا لَا آسَأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَا لَآءِنْ آجَرَىٰ إِلَّا عَلَىٰ اللَّهِ وَمَا أَنَا بِظَارِدِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّهُمْ مُلْمَعُونَ وَلَيْكِن آُرَيْكُمْ

قَوْمًا جَاهِلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَقُولُوا مَن يُضُرُّنِي مِنَ اللَّهِ إِن طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾

يقول لقومه لا أسألكم على نصحي لكم مالا : أجرة أخذها منكم إنما أتبعني الأجر من الله عز وجل ﴿وما أنا بطارد الذين آمنوا﴾ كأنهم طلبوا منه أن يطرد المؤمنين عنه احتشاما ونفاسة منهم أن يجلسوا معهم كما سأل أمثالهم خاتم الرسل ﷺ أن يطرد عنهم جماعة من الضعفاء ويجلس معهم مجلساً خاصاً فانزل الله تعالى : ﴿ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي﴾ الآية وقال تعالى : ﴿وكذلك فتنا بعضهم لبعض ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا ؟ أليس الله بأعلم بالشاكرين﴾ الآية .

وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ

خَبْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣١﴾

يغيرهم أنه رسول من الله يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له بإذن الله له في ذلك ولا يسألهم على ذلك أجرة بل هو يدعو من لقيه من شريف ووضع فمن استجاب له فقد نجا ، ويغيرهم أنه لا قدرة له على التصرف في خزائن الله ولا يعلم من الغيب إلا ما أطلعه الله عليه وليس هو بملك من الملائكة بل هو بشر مرسل مؤيد بالمعجزات ولا أقول عن هؤلاء الذين تحقروهم وتزدروهم أنهم ليس لهم عند الله ثواب على أعمالهم الله أعلم بما في أنفسهم فإن كانوا مؤمنين باطنا كما هو الظاهر من حالهم فلهم جزاء الحسن ولو قطع لهم أحد بشر بعد ما آمنوا لكان ظلماً قاتلاً ما لا علم له به .

قَالُوا يَا نُوْحُ قَدْ جَدَلْنَاكَ فَأَكْثَرْتَ جِدْلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ

إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنتم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ

هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾

يقول تعالى مخبراً عن استعجال قوم نوح نعمة الله وعذابه وسخطه ، والبلاء موكل بالمنطق . ﴿قالوا يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالتنا﴾ أي حاجبتنا فأكثرت من ذلك ونحن لا نتبعك ﴿فأتنا بما تعدنا﴾ أي من النعمة والعذاب ادع علينا بما شئت فليأتنا ما تدعوه به ﴿إن كنت من الصادقين قال إنما يأتيكم به الله إن شاء وما أنتم بمعجزين﴾ أي إنما الذي يعاقبكم ويعجلها لكم الله الذي لا يعجزه شيء ﴿ولا ينفعكم نصحي إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم﴾ أي أي شيء يجدي عليكم إبلاغي لكم وإنذاري إليكم ونصحي ﴿إن كان الله يريد أن يغويكم﴾ أي إغواؤكم ودماركم ﴿هو ربكم وإليه ترجعون﴾ أي هو مالك أزمة الأمور المتصرف الحاكم العادل الذي لا يجور ، له الخلق وله الأمر وهو المبدئ المعيد مالك الدنيا والآخرة .

أَمْ يَقُولُونَ أَفَنَرِيَهُ قُلْ إِنْ أَفَرَرْتَهُ فَعَلَىٰ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ وَمِمَّا يَحْتَرِمُونَ ﴿٣٥﴾

هذا كلام معترض في وسط هذه القصة مؤكداً لها . مقرر لها يقول تعالى لمحمد أم يقول هؤلاء الكافرون الجاحدون افترى هذا وافتعله من عنده ﴿قل إن افترته فعلي إجرامي﴾ أي فإثم ذلك علي ﴿وأنا بريء مما يجرمون﴾ أي ليس ذلك مفتعلاً ولا مفترى لأنني أعلم ما عند الله من العقوبة لمن كذب عليه .

وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدَّ أَمَنَ . فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٢٦﴾ وَأَصْنَعِ الْفُلَكَ بِأَعْيُنِنَا
وَوَحْيِنَا وَلَا تَخَظَّظْ فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّعْرِفُونَ ﴿٢٧﴾ وَصْنَعِ الْفُلَكَ وَكَلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا
مِنَهُ قَالُوا إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٢٨﴾ فَسَوْفَ نَعْلَمُ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحْمِلُ عَلَيْهِ عَذَابٌ

مُقِيمٌ ﴿٢٩﴾

يجبر تعالى أنه أوحى إلى نوح لما استعجل قومه نعمة الله بهم وعذابه لهم فدعا عليهم نوح دعوته التي قال الله تعالى خبيراً عنه أنه قال ﴿رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً﴾ ﴿فدعاه ربه إني مغلوب فانتصر﴾ فعند ذلك أوحى الله إليه ﴿أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن﴾ فلا تخزن عليهم ولا يمينك أمرهم ﴿واصنع الفلك﴾ يعني السفينة ﴿بأعيننا﴾ أي برأى منا ﴿ووحينا﴾ أي تعليمنا لك ما تصنعه ﴿ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون﴾ فقال بعض السلف أمره الله تعالى أن يفرز الخشب ويقطعه ويبيسه فكان ذلك في مائة سنة ونجراها في مائة سنة أخرى وقيل في أربعين سنة والله أعلم . وذكر محمد بن إسحاق عن التوراة أن الله أمره أن يصنعها من خشب الساج وأن يجعل طولها ثمانين ذراعاً وعرضها خمسين ذراعاً وأن يطلي باطنها وظهرها بالقار وأن يجعل لها جوجواً أزوراً يشق الماء ، وقال قتادة كان طولها ثلثمائة ذراع في عرض خمسين وعن الحسن طولها ستمائة ذراع وعرضها ثلثمائة وعنه مع ابن عباس طولها ألف ومائتا ذراع في عرض ستمائة وقيل طولها ألف ذراع وعرضها مائة ذراع فإله أعلم ، قالوا كلهم وكان ارتفاعها في السماء ثلاثين ذراعاً ثلاث طبقات كل طبقة عشرة أذرع فالسفلى للدواب والوحوش والوسطى للأنس والعليا للطيور وكان بابها في عرضها ولها غطاء من فوقها مطبق عليها .

وقد ذكر الإمام أبو جعفر بن جرير أثراً غريباً من حديث علي بن زيد بن جدعان عن يوسف بن مهران عن عبد الله بن عباس أنه قال : قال الحواريون لعيسى بن مريم لو بعثت لنا رجلاً شهد السفينة فحدثنا عنها قال فانطلق بهم حتى انتهى إلى كتيب من تراب فأخذ كفاً من ذلك التراب بكفه فقال أتدرون ما هذا ؟ قالوا الله ورسوله أعلم . قال هذا كعب حام بن نوح . قال فضرب الكتيب بعصاه قال قم بإذن الله فإذا هو قائم ينفذ التراب عن رأسه قد شاب قال له عيسى عليه السلام أهكذا هلكت ؟ قال لا . ولكني مت وأنا شاب ولكني ظننت أنها الساعة فمن ثم شبت ، قال حدثنا عن سفينة نوح ؟ قال كان طولها ألف ذراع ومائتي ذراع وعرضها ستمائة ذراع وكانت ثلاث طبقات فطبقة فيها الدواب والوحوش وطبقة فيها الإنس وطبقة فيها الطير فلما كثرت الدواب أوحى الله عز وجل إلى نوح عليه السلام أن اعمر ذنب الفيل فغمره فوقع منه خنزير وخنزيرة فأقبلا على الروث فلما وقع القار بجوف السفينة يقرضها وحبالها أوحى الله إليه أن اضرب بين عيني الأسد فخرج من منخره سنور وسنورة فأقبلا على القار ، فقال له عيسى عليه السلام كيف علم نوح أن البلاد قد غرقت ؟ قال بعث الغراب يأتيه بالخبر فوجد جيفة فوق وقع عليها فدعا عليه بالخوف فلذلك لا يألف البيوت . قال ثم بعث الحمامة فجاءت بورق زيتون بمنقارها وطين برجليها فعلم أن البلاد قد غرقت قال فطوقها الحصرة التي في عنقها ودعا لها أن تكون في أنس وأمان فمن ثم تألف البيوت قال فلقلنا يا رسول الله ألا نتنطق به إلى أهلينا فيجلس معنا ويحدثنا ؟ قال كيف يتبعكم من لا رزق له ؟ قال فقال له عد بإذن الله فعاد تراباً ، وقوله ﴿واصنع الفلك وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه﴾ أي يزهون به ويكذبون بما يتوعدهم به من الغرق ﴿قال إن تسخروا منا فإننا نسخر منكم﴾ الآية وعيد شديد وتهديد أكيد ﴿من يأتيه عذاب يخزيه﴾ أي يبيته في الدنيا ﴿ويحمل عليه عذاب مقيم﴾ أي دائم مستمر أبداً .

حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنْزِيرُ قُلْنَا آخِمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ مَآثِنٍ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ أَمَنَ

وَمَاءٌ آمِنٌ مَعَهُ إِلَّا لَاقِلٌ ﴿٤١﴾

هذه موعدة من الله تعالى لنوح عليه السلام إذا جاء أمر الله من الأمطار المتتابعة وهتان الذي لا يقلع ولا يفتّر ، بل هو كما قال تعالى : ﴿ففتحتنا أبواب السماء بماء منهمر * وفجرنا الأرض عيوناً فاللقى الماء على أمر قد قدر * وحملناه على ذات ألواح ودسر * تجري بأعيننا جزاء لمن كان كفر﴾ وأما قوله ﴿وفار التنور﴾ فمن ابن عباس التنور وجه الأرض ، أي صارت الأرض عيوناً تفور حتى فار الماء من التناير التي هي مكان النار صارت تفور ماء وهذا قول جمهور السلف وعلماؤه الخلف ، وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه التنور فلق الصبح وتنوير الفجر ، وهو ضياؤه وإشراقه والأول أظهر وقال مجاهد والشعبي كان هذا التنور بالكوفة ، وعن ابن عباس عين بالهند ، وعن قتادة عين بالجزيرة يقال لها عين الوردة وهذه أقوال غريبة فحينئذ أمر الله نوحاً عليه السلام أن يحمل معه في السفينة من كل زوجين اثنين من صنوف المخلوقات ذوات الأرواح ، قيل وغيرها من النباتات اثنين ذكراً وأنثى فليل كان أول من أدخل من الطيور الدرة وآخر من أدخل من الحيوانات الحمار فتعلق إبليس بذنبه وجعل يريد أن ينهض فيثقله إبليس وهو متعلق بذنبه فجعل يقول له نوح عليه السلام : مالك ويحك ادخل فينهض ولا يقدر فقال : ادخل وإن كان إبليس معك فدخلا في السفينة ، وذكر بعض السلف أنهم لم يستطيعوا أن يحملوا معهم الأسد حتى ألقى عليه الحمى .

وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا عبد الله بن صالح كاتب الليث حدثني هشام بن سعد عن زيد بن أسلم عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال «لما حمل نوح في السفينة من كل زوجين اثنين قال أصحابه : وكيف تطمئن المواشي ومعها الأسد؟ فسلط الله عليه الحمى فكانت أول حمى نزلت في الأرض ، ثم شكوا الفأر فقالوا : الفوسقة تفسد علينا طعامنا ومتاعنا فأوحى الله إلى الأسد فعطس ، فخرجت الهرة منه فتخبأت الفأرة منها .

وقوله ﴿وأهلك إلا من سبق عليه القول﴾ أي واحمل فيها أهلك وهم أهل بيته وقرابته إلا من سبق عليه القول منهم ممن لم يؤمن بالله فكان منهم ابنه الذي انعزل وحده وامرأة نوح وكانت كافرة بالله ورسوله ، وقوله ﴿ومن آمن﴾ أي من قومك ﴿وما آمن معه إلا قليل﴾ أي نزر يسير مع طول المدة والمقام بين أظهرهم ألف سنة إلا خمسين عاماً ، فمن ابن عباس كانوا ثمانين نفساً منهم نساؤهم ، وعن كعب الأحبار كانوا اثنين وسبعين نفساً . وقيل كانوا عشرة ، وقيل إنما كان نوح وبنوه الثلاثة سام وحام وياثف وكنانته الأربع نساء هؤلاء الثلاثة وامرأة يام ، وقيل بل امرأة نوح كانت معهم في السفينة وهذا فيه نظر ، بل الظاهر أنها هلكت لأنها كانت على دين قومها فأصابها ما أصابهم كما أصاب امرأة لوط ما أصاب قومها ، والله أعلم وأحكم .

﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرِبَهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٤١﴾ وَهُوَ يَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى

نُوحَ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْرَلٍ يَبْنِي أَرْكَبَ مَعْنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَتَأْتِي إِلَى جِبَلٍ بَعْضُهُمْ

مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَجَعُوا وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُحْرَقِينَ ﴿٤٣﴾

يقول تعالى إخباراً عن نوح عليه السلام أنه قال للذين أمر بحملهم معه في السفينة ﴿اركبوا فيها بسم الله مجريها ومرساها﴾ أي بسم الله يكون جريها على وجه الماء ، وبسم الله يكون منتهى سيرها وهو رسوها ، وقرأ أبو رجاء العطاردي ﴿بسم الله مجريها ومرسيها﴾ وقال الله تعالى : ﴿فإذا استويت أنت ومن معك على الفلك فقل الحمد لله الذي نجاننا من القوم الظالمين وقل رب أنزلني منزلاً مباركاً وأنت خير المنزلين﴾ ولهذا تستحب التسمية في ابتداء الأمور عند الركوب على السفينة وعلى الدابة كما قال تعالى : ﴿والذي خلق الأزواج كلها وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون لتستووا على ظهوره﴾ الآية ، وجاءت السنة بالحث على ذلك والتدب إليه كما سيأتي في سورة الزخرف إن شاء الله وبه الثقة وقال أبو القاسم الطبراني حدثنا إبراهيم بن هاشم البغوي حدثنا محمد بن أبي بكر المقدمي وحدثنا زكريا بن يحيى الساجي حدثنا محمد بن موسى الحرثي قال حدثنا عبد الحميد بن الحسن الهلالي عن نهل بن سعيد عن الضحاك عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال «أمان أمي من الغرق إذا ركبوا في السفن أن يقولوا بسم الله الملك ﴿وما قدروا الله حق قدره﴾ - الآية - ﴿بسم الله مجريها ومرساها إن ربي لغفور رحيم﴾ .

وقوله ﴿إن ربي لغفور رحيم﴾ مناسب عند ذكر الانتقام من الكافرين بإغراقهم أجمعين فذكر أنه غفور رحيم كقول

﴿إن ربك لسريع العقاب﴾ وإنه لغفور رحيم ﴿وقال﴾ ﴿وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم وإن ربك لشديد العقاب﴾ إلى غير ذلك من الآيات التي يقرن فيها بين رحمة وانتقامه وقوله ﴿وهي تجري بهم في موج كالجبال﴾ أي السفينة سائرة بهم على وجه الماء الذي قد طبق جميع الأرض حتى طفت على رؤوس الجبال وارتفع عليها بخمسة عشر ذراعاً وقيل بثمانين ميلاً ، وهذه السفينة جارية على وجه الماء سائرة بإذن الله وتحت كنفه وعنايته وحراسته وامتنانه كما قال تعالى : ﴿إننا لما طغى الماء حملناكم في الجارية﴾ لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية ﴿وقال تعالى : ﴿وهلنأه على ذات ألواح ودسر﴾ تجري بأعيننا جزاء لمن كان كفر﴾ ولقد تركناها آية فهل من مدكر ﴿وقوله﴾ ﴿ونادى نوح ابنه﴾ الآية ، هذا هو الابن الرابع واسمه يام وكان كافراً دعاه أبوه عند ركوب السفينة أن يؤمن ويركب معهم ولا يغرق مثل ما يغرق الكافرين ﴿قال سآوي إلى جبل يعصمني من الماء﴾ وقيل إنه اتخذ له مركباً من زجاج وهذا من الاسرائيليات والله أعلم بصحته ، والذي نص عليه القرآن أنه قال ﴿سآوي إلى جبل يعصمني من الماء﴾ اعتقد بجعله أن الطوفان لا يبلغ إلى رؤوس الجبال ، وأنه لو تعلق في رأس جبل لنجاة ذلك من الغرق ، فقال له أبوه نوح عليه السلام ﴿لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم﴾ أي ليس شيء يعصم اليوم من أمر الله ، وقيل إن عاصباً بمعنى معصوم كما يقال طاعم وكاس بمعنى مطعم ومكسو ﴿وحال بينهما الموج فكان من المغرقين﴾ .

وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَسْمَأْ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ

الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾

يجر تعالى انه لما أغرق أهل الأرض كلهم إلا أصحاب السفينة أمر الأرض أن تبلع ماءها الذي نبع منها واجتمع عليها ، وأمر السماء أن تقلع عن المطر ﴿وغيض الماء﴾ أي شرع في النقص ﴿وقضي الأمر﴾ أي فرغ من أهل الأرض قاطبة ممن كفر بالله لم يبق منهم ديار ﴿واستوت﴾ السفينة بمن فيها ﴿على الجودي﴾ قال مجاهد وهو جبل بالجزيرة تشاخمت الجبال يومئذ من الغرق وتناولت وتواضع هو لله عز وجل فلم يغرق وأرست عليه سفينة نوح عليه السلام وقال قتادة استوت عليه شهراً حتى نزلوا منها ، قال قتادة : قد أبقي الله سفينة نوح عليه السلام على الجودي من أرض الجزيرة عبرة وآية حتى رآها أوائل هذه الأمة وكمن من سفينة قد كانت بعدها فهلكت وصارت رمادا .

وقال الضحاك : الجودي جبل بالموصل وقال بعضهم : هو الطور ، وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي حدثنا عمرو بن رافع حدثنا محمد بن عبيد عن توبة بن سالم قال رأيت زر بن حبيش يصلي في الزاوية حين يدخل من أبواب كندة على يمينك فسألت إنك لكثير الصلاة ههنا يوم الجمعة قال بلغني أن سفينة نوح أرست من ههنا . وقال علباء بن أحرر عن عكرمة عن ابن عباس قال : كان مع نوح في السفينة ثمانون رجلاً معهم أهلهم وإنهم كانوا فيها مائة وخمسين يوماً وإن الله وجه السفينة إلى مكة فطافت بالبيت أربعين يوماً ثم وجهها الله إلى الجودي فاستقرت عليه فبعث نوح الغراب ليأتيه بخبر الأرض فذهب فوقع على الجيف فأبطأ عليه فبعث الحمامة فأنته بورق الزيتون فلطخت رجلها بالطين فعرف نوح عليه السلام أن الماء قد نضب فهبط إلى أسفل الجودي فابتنى قرية ، وسماها ثمانين فأصبحوا ذات يوم وقد تبلبت ألسنتهم على ثمانين لغة إحداها اللسان العربي ، فكان بعضهم لا يفقه كلام بعض فكان نوح عليه السلام يعبر عنهم . وقال كعب الأحبار : إن السفينة طافت ما بين المشرق والمغرب قبل أن تستقر على الجودي ، وقال قتادة وغيره ركبوها في عاشر شهر رجب فساروا مائة وخمسين يوماً واستقرت بهم على الجودي شهراً وكان خروجهم من السفينة في يوم عاشوراء من المحرم ، وقد ورد نحو هذا في حديث مرفوع رواه ابن جرير وأتهم صاموا يومهم ذلك والله أعلم .

وقال الإمام أحمد حدثنا أبو جعفر حدثنا عبد الصمد بن حبيب الأزدي عن أبيه حبيب بن عبد الله عن شبل عن أبي هريرة قال : مر النبي ﷺ بأناس من اليهود وقد صاموا يوم عاشوراء فقال «ما هذا الصوم ؟ قالوا هذا اليوم الذي نجى الله به موسى وبني إسرائيل من الغرق وغرق فيه فرعون وهذا يوم استوت فيه السفينة على الجودي فصام نوح وموسى وعليهما السلام شكراً لله عز وجل . فقال النبي ﷺ «أنا أحق بموسى وأحق بصوم هذا اليوم» فصام وقال لأصحابه «من كان أصبح منكم صائماً فليتم صومه ، ومن كان أصاب من غذاء أهله فليتم بقية يومه» وهذا حديث غريب من هذا الوجه ولبعضه شاهد في الصحيح ، وقوله ﴿وقيل بعداً للقوم الظالمين﴾ أي هلاكاً وخساراً لهم وبعداً من رحمة الله فإنهم قد هلكوا عن آخرهم فلم يبق لهم بقية .

وقد روى الإمام أبو جعفر بن جرير والحبر أبو محمد بن أبي حاتم في تفسيريهما من حديث يعقوب بن موسى الزمعي عن قائد مولى عبيد الله بن أبي رافع أن إبراهيم بن عبد الرحمن بن أبي ربيعة أخبره أن عائشة زوج النبي ﷺ أخبرته أن النبي ﷺ قال «لورحم الله من قوم نوح أحداً لرحم أم الصبي» قال رسول الله ﷺ «كان نوح عليه السلام مكث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً يعني وغرس مائة سنة الشجر فعظمت وذهبت كل مذهب ثم قطعها ثم جعلها سفينة ويمرون عليه ويسحرون منه ويقولون تعمل سفينة في البر فكيف تجري؟ قال سوف تعلمون فلما فرغ وبيع الماء وصار في السكك خشيت أم الصبي عليه وكانت تحبه حباً شديداً فخرجت إلى الجبل حتى بلغت ثلثه فلما بلغها الماء ارتفعت حتى بلغت ثلثيه فلما بلغها الماء خرجت به حتى استوت على الجبل فلما بلغ الماء رقتها رفعت يديها ففرقا . فلورحم الله منهم أحداً لرحم أم الصبي وهذا حديث غريب من هذا الوجه ، وقد روي عن كعب الأحبار ومجاهد بن جبير قصة هذا الصبي وأمه بنحو من هذا .

وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ أَبِي مِنَ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴿٤٥﴾

قَالَ يَسُوءُكُمْ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكُمْ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْتَلِنَ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٤٦﴾

قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٤٧﴾

هذا سؤال استعلام وكشف من نوح عليه السلام عن حال ولده الذي غرق ﴿قال رب إن ابني من أهلي﴾ أي وقد وعدتني بنجاة أهلي ووعدتك الحق الذي لا يخلف فكيف غرق وأنت أحكم الحاكمين ﴿قال يا نوح إنه ليس من أهلك﴾ أي الذين وعدت إنجاءهم لأنني إنما وعدتكم بنجاة من آمن من أهلك ، ولهذا قال ﴿وأهلك﴾ إلا من سبق عليه القول منهم ﴿فكان هذا الولد ممن سبق عليه القول بالفرق لكفره ومخالفته أباه نبي الله نوحاً عليه السلام ، وقد نص غير واحد من الأئمة على تحطئة من ذهب في تفسير هذا إلى أنه ليس بابنه وإنما كان ابن زنية ، ويحكى القول بأنه ليس بابنه وإنما كان ابن امرأته عن مجاهد والحسن وعبيد بن عمير وأبي جعفر الباقر وابن جرير ، واحتج بعضهم بقوله ﴿إنه عمل غير صالح﴾ وبقوله ﴿فخانتاهما﴾ فممن قاله الحسن البصري احتج بهاتين الآيتين وبعضهم يقول ابن امرأته وهذا يحتمل أن يكون أراد ما أراد الحسن أو أراد أنه أنسب إليه مجازاً لكونه كان ربيباً عنده فأنه أعلم . وقال ابن عباس وغير واحد من السلف ما زنت امرأة نبي قط قال : وقوله ﴿إنه ليس من أهلك﴾ أي الذين وعدتكم نجاتهم ، وقول ابن عباس في هذا هو الحق الذي لا محيد عنه فإن الله سبحانه أغير من أن يمكن امرأة نبي من الفاحشة ولهذا غضب الله على الذين رموا أم المؤمنين عائشة بنت الصديق زوج النبي ﷺ وأنكر على المؤمنين الذين تكلموا بهذه وأشاعوه ولهذا قال تعالى : ﴿إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم لا تحسبوه شراً لكم بل هو خير لكم * لكل امرئ ما اكتسب من الإثم والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم - إلى قوله - إذ تلقونه بالسنتكم وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم وتحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم﴾ .

وقال عبد الرزاق أخبرنا معمر عن قتادة وغيره عن عكرمة عن ابن عباس قال : هو ابنه غير أنه خالفه في العمل والنية قال عكرمة في بعض الحروف إنه عمل عملاً غير صالح ، والخيانة تكون على غير باب ، وقد ورد في الحديث أن رسول الله ﷺ قرأ بذلك فقال الإمام أحمد حدثنا يزيد بن هارون حدثنا حماد بن سلمة عن ثابت عن شهر بن حوشب عن أسماء بنت يزيد قالت سمعت رسول الله ﷺ يقرأ ﴿إنه عمل غير صالح﴾ وسمعت يقول ﴿يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً﴾ ولا يبالي ﴿إنه هو الغفور الرحيم﴾ وقال أحمد أيضاً حدثنا وكيع حدثنا هارون النحوي عن ثابت البناني عن شهر بن حوشب عن أم سلمة أن رسول الله ﷺ قرأها ﴿إنه عمل غير صالح﴾ أعاده أحمد أيضاً في مسنده ، أم سلمة هي أم المؤمنين والظاهر والله أعلم أنها أسماء بنت يزيد فإنها تكني بذلك أيضاً . وقال عبد الرزاق أيضاً أنا الثوري عن ابن عيينة عن موسى بن أبي عائشة عن سليمان بن قبة قال سمعت ابن عباس سئل وهو إلى جنب الكعبة عن قول الله ﴿فخانتاهما﴾ قال أما إنه لم يكن بالزنى ولكن هذه كانت تغير الناس أنه مجنون ، وكانت هذه تدل على الأضياف ثم قرأ ﴿إنه عمل غير صالح﴾ قال ابن عيينة وأخبرني عمار الذهبي أنه سأل سعيد بن جبير عن ذلك فقال : كان ابن نوح إن الله لا يكذب . قال تعالى : ﴿ونادى نوح ابنه﴾ قال وقال بعض العلماء ما فجرت امرأة نبي قط . وكذا روي عن مجاهد أيضاً وعكرمة والضحاك وميمون بن مهران وثابت بن الحجاج وهو اختيار أبي جعفر بن جرير وهو الصواب الذي لا شك فيه .

قِيلَ لِنُوحٍ أَهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ وَأُمَّمٌ سَمَّيْتَهُمْ ثُمَّ بَعَثْنَا عَادًا بِلُوطٍ ﴿١٨﴾

نَجَّى تَعَالَى عَمَّا قِيلَ لِنُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ حِينَ أُرْسِتِ السَّفِينَةُ عَلَى الْيَهُودِيِّ مِنَ السَّلَامِ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ مِنْ مَعَهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَعَلَىٰ كُلِّ مُؤْمِنٍ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ كَمَا قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ دَخَلَ فِي هَذَا السَّلَامِ كُلُّ مُؤْمِنٍ وَمُؤْمِنَةٍ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَكَذَلِكَ فِي الْعَذَابِ وَالنَّعَاقِ كُلِّ كَافِرٍ وَكَافِرَةٍ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ لَمَّا أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَكْفِيَ الطُّوفَانَ أَرْسَلَ رِيحًا عَلَىٰ وَجْهِ الْأَرْضِ فَسَكَنَ الْمَاءَ وَانْسَدَّتْ بِتَابِعِ الْأَرْضِ الْغَمْرُ الْأَكْبَرُ وَأَبْوَابُ السَّمَاءِ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ﴾ الْآيَةُ فَجَعَلَ الْمَاءَ يَنْقُصُ وَيَغِيضُ وَيَدِيرُ وَكَانَ اسْتِوَاءُ الْفَلَكَ عَلَى الْيَهُودِيِّ فِيمَا يَزْعَمُ أَهْلُ التَّوْرَةِ فِي الشَّهْرِ السَّابِعِ لِسَبْعِ عَشْرَةَ لَيْلَةً مَضَتْ مِنْهُ وَفِي أَوَّلِ يَوْمٍ مِنَ الشَّهْرِ الْعَاشِرِ رَأَى رُؤُوسَ الْجِبَالِ فَلَمَّا مَضَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ أَرْبَعُونَ يَوْمًا فَتَحَ نُوحٌ كُوَّةَ الْفَلَكَ الَّتِي رَكِبَ فِيهَا ثُمَّ أَرْسَلَ الْغُرَابَ لِيَنْظُرَ لَهُ مَا صَنَعَ الْمَاءُ فَلَمْ يَرْجِعْ إِلَيْهِ فَأَرْسَلَ الْحَمَامَةَ فَرَجَعَتْ إِلَيْهِ لَمْ تَجِدْ لِرَجْلِهَا مَوْضِعًا فَبَسَطَ يَدَهُ لِلْحَمَامَةِ فَأَخَذَهَا فَأَدْخَلَهَا ثُمَّ مَضَىٰ سَبْعَةَ أَيَّامٍ ثُمَّ أَرْسَلَهَا لَتَنْظُرَ لَهُ فَرَجَعَتْ حِينَ أَمْسَتْ وَفِيهَا وَرَقُ زَيْتُونٍ فَعَلِمَ نُوحٌ أَنَّ الْمَاءَ قَدْ قَلَّ عَنْ وَجْهِ الْأَرْضِ ثُمَّ مَكَثَ سَبْعَةَ أَيَّامٍ ثُمَّ أَرْسَلَهَا فَلَمْ تَرْجِعْ فَعَلِمَ نُوحٌ أَنَّ الْأَرْضَ قَدْ بَرَزَتْ فَلَمَّا كَمَلَتْ السَّنَةَ فِيهَا بَيَّنَّ أَنْ أَرْسَلَ اللَّهُ الطُّوفَانَ إِلَىٰ أَنْ أَرْسَلَ نُوحَ الْحَمَامَةَ وَدَخَلَ يَوْمَ وَاحِدٍ مِنَ الشَّهْرِ الْأَوَّلِ مِنْ سَنَةِ اثْنَتَيْنِ بَرَزَ وَجْهُ الْأَرْضِ وَظَهَرَ الْبَرُّ وَكُشِفَ نُوحٌ غَطَاءَ الْفَلَكَ وَفِي الشَّهْرِ الثَّانِي مِنَ سَنَةِ اثْنَتَيْنِ فِي سِتِّ وَعِشْرِينَ لَيْلَةً مِنْهُ ﴿قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا﴾ الْآيَةُ .

تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾

يَقُولُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ ﷺ هَذِهِ الْقِصَّةُ وَأَشْبَاهُهَا ﴿مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ﴾ يَعْنِي مِنَ أَخْبَارِ الْغُيُوبِ السَّالِفَةِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ عَلَىٰ وَجْهِهَا كَأَنَّكَ شَاهِدُهَا نُوحِيهَا إِلَيْكَ أَيَّ نَعْلَمُكَ بِهَا وَحَيَا مِنَّا إِلَيْكَ ﴿مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا﴾ أَيَّ لَمْ يَكُنْ عِنْدَكَ وَلَا عِنْدَ أَحَدٍ مِنْ قَوْمِكَ عِلْمٌ بِهَا حَتَّىٰ يَقُولَ مَنْ يَكْذِبُ بِكَ إِنَّكَ تَعْلَمُهَا مِنْهُ بَلْ أَخْبَرَكَ اللَّهُ بِهَا مَطَابِقَةً لِمَا كَانَ عَلَيْهِ الْأَمْرُ الصَّحِيحُ كَمَا تَشْهَدُ بِهِ كُتُبُ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلَكَ فَاصْبِرْ عَلَىٰ تَكْذِيبِ مَنْ كَذَبَكَ مِنْ قَوْمِكَ وَأَذَاهُمْ لَكَ فَإِنَّا سَنَنْصُرُكَ وَنُحَوِّطُكَ بِعَنَابِتِنَا وَنَجْعَلُ الْعَاقِبَةَ لَكَ وَالْأَبْعَاقَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ كَمَا فَعَلْنَا بِالْمُرْسَلِينَ حَيْثُ نَصَرْنَاهُمْ عَلَىٰ أَعْدَائِهِمْ ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ الْآيَةُ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ إِنْ هُمْ إِلَّا خَائِرُونَ﴾ الْآيَةُ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ .

وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَهُ مَالٌ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَنْتُمْ بِالْمُفْتَرِينَ ﴿٢٠﴾ يَقَوْمِ

لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنِّي أَجْرِي إِلَّا عَلَىٰ الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٢١﴾ وَيَقَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا

إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ﴿٢٢﴾

يَقُولُ تَعَالَى ﴿و﴾ لَقَدْ أَرْسَلْنَا ﴿إِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ أَمْرًا هُمْ بِعِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ نَاهِيًا هُمْ عَنِ الْأَوْثَانِ الَّتِي افْتَرَوْهَا وَاخْتَلَفُوا لَهَا أَسْمَاءَ الْأَلْهَةِ وَأَخْبَرَهُمْ أَنَّهُ لَا يَرِيدُ مِنْهُمْ أَجْرَةً عَلَىٰ هَذَا النَّصْحِ وَالْبَلَاغِ مِنَ اللَّهِ إِنَّمَا يَبْغِي ثَوَابَهُ مِنَ اللَّهِ الَّذِي فَطَرَهُ أَفَلَا تَعْقِلُونَ مَنْ يَدْعُوكُمْ إِلَىٰ مَا يَصْلِحُكُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ مِنْ غَيْرِ أَجْرَةٍ ثُمَّ أَمَرَهُم بِالاسْتِغْفَارِ الَّذِي فِيهِ تَكْفِيرُ الذُّنُوبِ السَّالِفَةِ وَبِالتَّوْبَةِ عَمَّا يَسْتَقْبَلُونَ ، وَمَنْ اتَّصَفَ بِهَذِهِ الصِّفَةِ يَسِّرَ اللَّهُ عَلَيْهِ رِزْقَهُ وَسَهَّلَ عَلَيْهِ أَمْرَهُ وَحَفِظَ شَأْنَهُ وَهَذَا قَالَ ﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا﴾ وَفِي الْحَدِيثِ «مَنْ لَزِمَ الْاسْتِغْفَارَ جَعَلَ اللَّهُ لَهُ مِنْ كُلِّ هَمٍّ فَرْجًا وَمِنْ كُلِّ ضَيْقٍ مَخْرَجًا وَرِزْقَهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ» .

قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ إِن نَقُولُ إِلَّا أَعْرَابَكَ

بَعْضَ الْهَيْئَاتِ سُبُوهُ قَالَ إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُ وَأَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَشْرِكُونَ ﴿٥٦﴾ مِنْ دُونِهِ فَكَيْدُو فِي جَمِيعَاتِهِمْ لَا تَنْظُرُونَ ﴿٥٥﴾
 إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾

يخبر تعالى أنهم قالوا للنبيم ﴿ما جئتنا ببينة﴾ أي بحجة وبرهان على ما تدعيه ﴿وما نحن بتاركي آهتنا عن قولك﴾ أي بمجرد قولك اتركوهم تركهم ﴿وما نحن لك بمؤمنين﴾ بمصدقين ﴿إن نقول إلا اعتراك بعض آهتنا بسوء﴾ يقولون ما نظن إلا أن بعض الآلهة أصابك بجنون وخيل في عقلك بسبب نبيك عن عبادتها وعيبك لها ﴿قال إني أشهد الله وأشهدوا أنني بريء مما تشركون من دونه﴾ يقول إني بريء من جميع الأنداد والأصنام ﴿فكيدوني جميعاً﴾ أي أنتم وآهنتكم إن كانت حقا ﴿ثم لا تنظرون﴾ أي طرفة عين وقوله ﴿إني توكلت على الله ربي وربكم ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها﴾ أي تحت قهره وسلطانه وهو الحاكم العادل الذي لا يجوز في حكمه فإنه على صراط مستقيم قال الوليد بن مسلم عن صفوان بن عمرو عن أبيع بن عبد الكلاعي أنه قال في قوله تعالى : ﴿ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها﴾ إن ربي على صراط مستقيم ﴿قال فيأخذ بناصية بني نوح على صراط مستقيم﴾ وقد تضمن هذا المقام حجة بالغة ودلالة قاطعة على صدق ما جاءهم به وبطلان ما هم عليه من عبادة الأصنام التي لا تنفع ولا تضرب بل هي جناد لا تسمع ولا تبصر ولا توالي ولا تعادي وإنما يستحق إخلاص العبادة الله وحده لا شريك له الذي بيده الملك وله التصرف وما من شيء إلا تحت ملكه وقهره وسلطانه فلا إله إلا هو ولا رب سواه .

فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَسَخِطُفَ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُمْ شَيْئاً إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الَّتِي كُنَّا نُنزِّلُهَا عَلَيْكَ لَعَلَّ لَئِنِ انْتَبَهَوْا لَعَلَّ يَرْجِعُوا إِلَى اللَّهِ وَأَتَّبِعُوا أَمْرَ كُلِّ جِبَارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأَتَّبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةَ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٠﴾

يقول لهم هود فإن تولوا عما جئتمكم به من عبادة الله ربكم وحده لا شريك له فقد قامت عليكم الحجة ببلاغي إياكم رسالة الله التي بعثني بها ﴿ويستخلف ربي قوما غيركم﴾ يعبدونه وحده لا يشركون به ولا يبالي بكم فإنكم لا تضرونه بكفركم بل يعود وبال ذلك عليكم ﴿إن ربي على كل شيء حفيظ﴾ أي شاهد وحافظ لأنوال عبادته وأفعالهم ويجزيهم عليها إن خيرا فخير وإن شرا فشر ﴿ولما جاء أمرنا﴾ وهو الريح العقيم فأهلكهم الله عن آخرهم ونجى هودا وأتباعه من عذاب غليظ برحمة تعالى ولطفه ﴿وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم﴾ كفروا بها وعصوا رسل الله وذلك أن من كفر بنبي فقد كفر بجميع الأنبياء لأنه لا فرق بين أحد منهم في وجوب الإيمان به فعاد كفروا يهود فنزل كفرهم منزلة من كفر بجميع الرسل ﴿واتبعوا أمر كل جبار عنيد﴾ تركوا اتباع رسولهم الرشيد ؟ واتبعوا أمر كل جبار عنيد ، فهذا أتبعوا في هذه الدنيا لعنة من الله ومن عبادة المؤمنين كلما ذكروا وينادي عليهم يوم القيامة على رؤوس الأشهاد ﴿ألا إن عادا كفروا ربهم﴾ الآية قال السدي ما بعث نبي بعد عاد إلا لعنوا على لسانه .

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُخْلِصُوا لَهُمْ مِنْكُمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَبَدَّلُوا صِلَتَهُمْ بِحَبِيبٍ يُحِبُّ﴾

يقول تعالى : ﴿و﴾ لقد أرسلنا ﴿إلى ثمود﴾ وهم الذين كانوا يسكنون مذائن الحجر بين تبوك والمدينة وكانوا بعد عاد فبعث الله منهم ﴿أحاهم صالحاً﴾ فأمرهم بعبادة الله وحده ولهذا قال ﴿هو أنشأكم من الأرض﴾ أي ابتداء خلقكم منها خلق منها أبابكم آدم ﴿واستعمركم فيها﴾ أي جعلكم عمارة تعمرونها وتستغلونها ﴿فاستغفروه﴾ لسالف ذنوبكم ﴿ثم توبوا إليه﴾

فيا تستقبلونه ﴿إن ربي قريب مجيب﴾ كما قال تعالى : ﴿وإذا سألك عبادي عني فاني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان﴾ الآية .

قَالُوا نَصَلِحْ فَلَمَّا كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنهَلْنَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّا لَفِي شَكِّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٌ ﴿١٦٢﴾
قَالَ يَفْقَهُمْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي مِّنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَبْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَأَتْرِبُ وَيُنِي

غَيْرَ تَحْسِيرٍ ﴿١٦٣﴾

يذكر تعالى ما كان من الكلام بين صالح عليه السلام وبين قومه وما كان عليه قومه من الجهل والعماد في قولهم ﴿قد كنت فينا مرجوا قبل هذا﴾ أي كنا نرجوك في عقلك قبل أن تقول ما قلت ﴿أنتهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا﴾ وما كان عليه أسلافنا ﴿وإننا لفي شك مما تدعوننا إليه مريب﴾ أي شك كثير ﴿قال يا قوم أرايتم إن كنت على بينة من ربي﴾ فيا أرسلني به إليكم على يقين وبرهان ﴿وأتاني منه رحمة فمن ينصروني من الله إن عصيته﴾ وتركت دعوتكم إلى الحق وعبادة الله وحده ، فلر تركته لما نفعتموني ولما زدتموني ﴿غير تحسير﴾ أي خسارة .

وَيَقُولُ هَذِهِ نَافَةٌ لِلَّهِ لَكُمْ ءَايَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا يُسُوءَ فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿١٦٤﴾
فَعَفُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعَدْ غَيْرَ مَكْدُوبٍ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا
وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِن خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴿١٦٦﴾ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ
فَأَصْبَحُوا فِي دِيَرِهِمْ جُثَثٍ ﴿١٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا الْإِن تَتُودَ أَكْفَرُوا مِنْهُمْ أَلَا يَتَذَكَّرُونَ ﴿١٦٨﴾

تقدم الكلام على هذه القصة مستوفى في سورة الأعراف بما أغنى عن إعادته ههنا وبالله التوفيق .

وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامًا قَلِمَا لَيْتَ أَن بَعْجَلُ حَنِيذٍ ﴿١٦٩﴾ فَلَمَّا
رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكَرَهُمْ وَأَوَّجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَحْزَنْ إِنَّا أُورِثْنَا الْوَلُوطَ ﴿١٧٠﴾ وَأَمْرَانَهُ قَائِمَةٌ
فَضْحَكْتَ فَنَبِّئْنَهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴿١٧١﴾ قَالَتْ بَيْنُوتَ لِقَاءِ آلدِّ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا تَعَلَّىٰ شَيْخَانًا هَذَا
لَشَيْءٍ عَجِيبٍ ﴿١٧٢﴾ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿١٧٣﴾

يقول تعالى ﴿ولما جاءت رسلنا﴾ وهم الملائكة إبراهيم بالبشرى قيل تبشره بإسحاق وقيل بهلاك قوم لوط وشهد للاول قوله تعالى : ﴿ولما ذهب عن إبراهيم الروح وجاءته البشرى يجادلنا في قوم لوط﴾ قالوا سلاما قال سلام﴾ أي عليكم قال علماء البيان : هذا أحسن مما حيوه به لأن الرفع يدل على الثبوت والدوام ﴿فما لبثت أن جاء بعجل حنيد﴾ أي ذهب سريعاً فاتاهم بالضيافة وهو عجل فتى البقر ، حنيد : مشوي على الرضف وهي الحجارة المحماة . هذا معنى ما روي عن ابن عباس وقتادة وغير واحد كما قال في الآية الأخرى ﴿فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين فقربه إليهم قال ألا تأكلون﴾ وقد تضمنت هذه الآية آداب الضيافة من وجوه كثيرة وقوله ﴿فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم﴾ وأوجس منهم خيفة﴾ وذلك أن الملائكة لا همة لهم إلى الطعام ولا يشتهونه ولا يأكلونه فهذا رأى حالهم معرضين عما جاءهم به فارغين عنه بالكلية فعند ذلك نكرهم ﴿وأوجس منهم خيفة﴾ قال السدي لما بعث الله الملائكة لقوم لوط أقبلت شمسي في صور رجال شبان حتى نزلوا على إبراهيم فتضيفوه ، فلما راهم أحلهم ﴿فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين﴾ فذبحه ثم شواه

في الرضف وأتاهم به فقعده معهم وقامت سارة تخدمهم فذلك حين يقول - وامرأته قائمة وهو جالس - في قراءة ابن مسعود ﴿فلما قربه إليهم قال ألا تأكلون؟﴾ قالوا يا إبراهيم إنا لا نأكل طعاماً إلا بئسنا ، قال فإن لهذا ثمتنا ، قالوا وما ثمتنا ؟ قال تذكرون اسم الله على أوله وتحمدونه على آخره فنظر جبريل إلى ميكائيل فقال حق لهذا أن يتخذة ربه خليلاً ﴿فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم﴾ يقول فلما رآهم لا يأكلون فزع منهم وأوجس منهم خيفة ، فلما نظرت سارة أنه قد أكرمهم وقامت هي تخدمهم ضحكت وقالت : عجباً لأضيافنا هؤلاء نخدمهم بأنفسنا كرامة هم وهم لا يأكلون طعامنا .

وقال ابن حاتم حدثنا علي بن الحسين حدثنا نصر بن علي حدثنا نوح بن قيس عن عثمان بن محيصن في ضيف إبراهيم قال كانوا أربعة : جبريل وميكائيل وإسرافيل ورفائيل . قال نوح بن قيس فزعم نوح بن أبي شداد أنهم لما دخلوا على إبراهيم فقرب إليهم العجل مسحه جبريل بجناحه فقام يدرج حتى لحق بأمه وأم العجل في الدار ، وقوله تعالى إخباراً عن الملائكة ﴿قالوا لا تخف﴾ أي قالوا لا تخف إنا ملائكة أرسلنا إلى قوم لوط لنهلكهم ، فضحكت سارة استبشاراً بهلاكهم لكثرة فسادهم وغلظ كفرهم وعنادهم فلهذا جوزيت بالبشارة بالولد بعد الإياس ، وقال قتادة ضحكت وعجبت أن قوما يأتيهم العذاب وهم في غفلة ، وقوله ﴿ومن وراء إسحاق يعقوب﴾ قال العوفي عن ابن عباس فضحكت أي حاضت ، وقول محمد بن قيس إنها إنما ضحكت من أنها ظنت أنهم يريدون أن يعملوا كما يعمل قوم لوط . وقول الكلبي إنها إنما ضحكت لما رأت من الروح بإبراهيم ضعفاً ووجداً وإن كان ابن جرير قد رواها بسنده إليهما فلا يلتفت إلى ذلك والله أعلم . وقول وهب بن منبه : إنما ضحكت لما بشرت بإسحاق وهذا مخالف لهذا السياق فإن البشارة صريحة مرتبة على ضحكها ﴿فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب﴾ أي يولد لها يكون له ولد وعقب ونسل فإن يعقوب ولد إسحاق كما قال في آية البقرة ﴿أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبني ما تعبدون من بعدي ؟ قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسحاق ألها واحداً ونحن له مسلمون﴾ .

ومن ههنا استدلل من استدلل بهذه الآية على أن الذبيح إنما هو إسماعيل ، وأنه يمتنع أن يكون هو إسحاق لأنه وقعت البشارة به وأنه سيولد له يعقوب فكيف يؤمر إبراهيم بذبحه وهو طفل صغير ولم يولد له بعد يعقوب الموعود بوجوده ووعد الله حق لا خلف فيه فيمتنع أن يؤمر بذبح هذا والحالة هذه ، فتعين أن يكون هو إسماعيل وهذا من أحسن الاستدلال وأصحها وأبينه والله الحمد ﴿قالت يا ويلتي أألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخاً﴾ الآية حكى قولها في هذه الآية كما حكى فعلها في الآية الأخرى فإنها ﴿قالت يا ويلتي أألد وأنا عجوز﴾ وفي الذاريات ﴿فأقبلت امرأته في صرة فصكت وجهها وقالت عجوز عقيم﴾ كما جرت به عادة النساء في أقوالهن وأفعالهن عند التعجب ﴿قالوا أتعجبين من أمر الله﴾ أي قالت الملائكة لها لا تعجبي من أمر الله فإنه إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون . فلا تعجبي من هذا وإن كنت عجوزاً عقيماً وبعلك شيخاً كبيراً فإن الله على ما يشاء قدير ﴿رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت أنه حميد مجيد﴾ أي هو الحميد في جميع أفعاله وأقواله محمود مجيد في صفاته وذاته ، ولهذا ثبت في الصحيحين أنهم قالوا : قد علمنا السلام عليك فكيف الصلاة عليك يا رسول الله ؟ ﴿قال قولوا اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وآل إبراهيم ، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد﴾ .

لَمَّا ذَهَبَ عَنِ إِزْرَاهِمِ الرُّوحُ وَجَاءَهُ تَهُّ الْبَشَرَىٰ يَجِدُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِزْرَاهِمَ لَحَلِيمٌ أَوْهٌ مِّنِّيْبٌ ﴿٧٥﴾ يَا إِزْرَاهِمُ اعْرِضْ

عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾

يجر تعالى عن إبراهيم عليه السلام أنه لما ذهب عنه الروح وهو ما أوجس من الملائكة خيفة حين لم يأكلوا وبشروه بعد ذلك بالولد وأخبروه بهلاك قوم لوط أخذ يقول كما قال سعيد بن جبير في الآية قال لما جاءه جبريل ومن معه قالوا له ﴿إنا مهلكوا أهل هذه القرية﴾ قال هم أهلكون قرية فيها ثلثمائة مؤمن ؟ قالوا لا ، قال أهلكون قرية فيها مائتا مؤمن ؟ قالوا لا ، قال أهلكون قرية فيها أربعون مؤمناً ؟ قالوا لا ، قال ثلاثون ؟ قالوا لا ، حتى بلغ خمسة قالوا لا ، قال : أرايتكم أن كان فيها رجل واحد مسلم أهلكونها ؟ قالوا لا ، فقال إبراهيم عليه السلام عند ذلك ﴿إن فيها لوطاً قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله إلا امرأته﴾ الآية . فسكت عنهم واطمأنت نفسه ، وقال قتادة وغيره قريباً من هذا زاد ابن إسحاق أفرايمم إن كان فيها مؤمن واحد ؟ قالوا لا ، قال فإن كان فيها لوط يدفع به عنهم العذاب قالوا ﴿نحن أعلم بمن فيها﴾ الآية ، وقوله ﴿إن إبراهيم حلليم أواه منيب﴾ مدح لإبراهيم هذه الصفات الجميلة ، وقد تقدم تفسيرها ، وقوله

تعالى ﴿يا إبراهيم أعرض عن هذا إنه قد جاء أمر ربك﴾ الآية ، أي أنه قد نفذ فيهم القضاء وحقت عليهم الكلمة بإهلاك وحلول البأس الذي لا يرد عن القوم المجرمين .

وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيقًا بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَتَقَوْمٌ هَؤُلَاءِ بِنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تَحْزَنُوا فِي صَیْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ زَكِيٌّ ﴿٧٨﴾ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَعَلْمٌ مَارِيذٌ ﴿٧٩﴾

يخبر تعالى عن قدوم رسله من الملائكة بعد ما أعلموا إبراهيم بهلاكهم وفارقوه وأخبروه بإهلاك الله قوم لوط هذه الليلة فانطلقوا من عنده فاتوا لوطاً عليه السلام وهو على ما قيل في أرض له وقيل في منزله ووردوا عليه وهم في أجل صورة تكون على هيئة شبان حسان الوجوه ابتلاء من الله وله الحكمة والحجة البالغة فساء شأنهم وضاعت نفسه بسببهم وخشي إن لم يضيفهم أن يضيفهم أحد من قومه فينالهم بسوء ﴿وقال هذا يوم عصيب﴾ قال ابن عباس وغير واحد شديد بلاؤه وذلك أنه علم أنه سيدافع عنهم ويشق عليه ذلك . وذكر قتادة أنهم أتوه وهو في أرض له فضيفوه فاستحيا منهم فانطلق أمامهم وقال لهم في أثناء الطريق كالمعرض لهم بأن ينصرفوا عنه أنه والله يا هؤلاء ما أعلم على وجه الأرض أهل بلد أحببت من هؤلاء . ثم مشى قليلاً ثم أعاد ذلك عليهم حتى كرره أربع مرات ، قال قتادة وقد كانوا أمروا أن لا يهلكوهم حتى يشهد عليهم نبيهم بذلك .

وقال السدي خرجت الملائكة من عند إبراهيم نحو قرية لوط فبلغوا نهر سدوم نصف النهار ولقوا بنت لوط تستقي فقالوا يا جارية هل من منزل ؟ فقالت مكانكم حتى آتيكم وفرقت عليهم من قومها فأتت أباهما فقالت يا أبته أدرك فيتانا على باب المدينة ما رأيت وجوه قوم أحسن منهم لا يأخذهم قومك وكان قومه نهوه أن يضيف رجلاً فقالوا خل عنا فلنضيف الرجال فجاء بهم فلم يعلم بهم أحد إلا أهل بيته فخرجت امرأته فأخبرت قومها فجاءوا يهرعون إليه وقوله ﴿يهرعون إليه﴾ أي يسرعون ويهرولون من فرحهم بذلك وقوله ﴿ومن قبل كانوا يعملون السيئات﴾ أي لم يزل هذا من سجيبتهم حتى أخذوا وهم على ذلك الحال وقوله ﴿قال يا قوم هؤلاء بناتي هن أطهر لكم﴾ يرشدهم إلى نساءهم فإن النبي للأمة بمنزلة الوالد فأرشدهم إلى ما هو أنفع لهم في الدنيا والآخرة كما قال لهم في الآية الأخرى ﴿أتأتون الذكران من العالمين وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم بل أنتم قوم عادون﴾ وقوله في الآية الأخرى ﴿قالوا أولم تنهك عن العالمين﴾ أي ألم تنهك عن ضيافة الرجال ﴿قال هؤلاء بناتي إن كنتم فاعلين﴾ لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون ﴿وقال في هذه الآية الكريمة﴾ هؤلاء بناتي هن أطهر لكم ﴿قال مجاهد لم يكن بناته ولكن كن من أمته وكل نبي أبو أمته وكذا روي عن قتادة وغير واحد .

وقال ابن جريج : أمرهم أن يتزوجوا النساء لم يعرض عليهم سفاحا . وقال سعيد بن جبير يعني نساءهم هن بناته وهو أب لهم ويقال في بعض القراءات ﴿النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم وهو أب لهم﴾ وكذا روي عن الربيع بن أنس وقتادة والسدي ومحمد بن إسحاق وغيرهم وقوله ﴿فاتقوا الله ولا تحزنوا في صيفي﴾ أي اقبلوا ما أمركم به من الاقتصاد على نساءكم ﴿أليس منكم رجل رشيد﴾ أي فيه خير يقبل ما أمره به ويترك ما أنهاه عنه ﴿قالوا لقد علمت ما لنا في بناتك من حق﴾ أي إنك لتعلم أن نساءنا لا أرب لنا فيهن ولا نستهيبن ﴿وإنك لتعلم ما نريد﴾ أي ليس لنا غرض إلا في الذكور وأنت تعلم ذلك فأبي حاجة في تكرار القول علينا في ذلك ؟ قال السدي ﴿وإنك لتعلم ما نريد﴾ إنما نريد الرجال .

قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ إِيَّاكَ رُكْنٌ شَدِيدٌ ﴿٨٠﴾ قَالُوا يَلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرَبْنَا هَيْكَلًا يَقْطَعُ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتُ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرًا نَكْتُمُ الْبَصِيصَ ﴿٨١﴾

يقول تعالى مخبراً عن نبيه لوط عليه السلام إن لوطاً توعدهم بقوله ﴿لو أن لي بكم قوة﴾ الآية أي لكنت نكلت بكم

وفعلت بكم الأفاعيل بنفسي وعشيرتي ، ولهذا ورد في الحديث من طريق محمد بن عمرو بن علقمة عن أبي سلمة عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال ورحة الله على لوط لقد كان يأوي إلى ركن شديد - يعني الله عز وجل - فما بعث الله بعده من نبي إلا في ثروة من قومه، فعند ذلك أخبرته الملائكة أنهم رسل الله إليه وأنهم لا وصول لهم إليه ﴿قالوا يا لوط إنا رسل ربك لن يصلوا إليك﴾ وأمره أن يسري بأهله من آخر الليل وأن يتبع أدبارهم أي يكون ساقية لأهله ﴿ولا يلتفت منكم أحد﴾ أي إذا سمعت ما نزل بهم ولا تهولتكم تلك الأصوات المزعجة ولكن استمروا ذاهبين ﴿إلا امرأتك﴾ قال الأكثرون هو استثناء من المثبت وهو قوله ﴿فأسر بأهلك﴾ تقديره ﴿إلا امرأتك﴾ وكذلك قرأها ابن مسعود ، ونصب هؤلاء امرأتك لأنه من مثبت فوجب نصبه عندهم ، وقال آخرون من القراء والنحاة هو استثناء من قوله ﴿ولا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك﴾ فجوزوا الرفع والنصب .

ذكر هؤلاء أنها خرجت معهم وأنها لما سمعت الوجبة التفت وقالت : واقوماه فجاءها حجر من السماء فقتلها ثم قربوا له هلاك قومه تبشيراً له لأنه قال لهم أهلكوهم الساعة فقالوا ﴿إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب﴾ هذا وقوم لوط وقوف على الباب عكوف قد جاءوا يهرعون إليه من كل جانب ولوط واقف على الباب يدافعهم ويردعهم وينهاهم عما هم فيه وهم لا يقبلون منه بل يتعدونه ويتهدونه فعند ذلك خرج عليهم جبريل عليه السلام فضرب وجوههم بجناحه فطمس أعينهم فرجعوا وهم لا يهتدون الطريق كما قال تعالى : ﴿ولقد راودوه عن ضيقه فطمسنا أعينهم فذوقوا عذابي ونذر﴾ الآية وقال معمر عن قتادة عن حذيفة بن اليمان قال كان إبراهيم عليه السلام يأتي قوم لوط فيقول أناكم الله أن تعرضوا لعقوبته فلم يطيعوه حتى إذا بلغ الكتاب أجله انتهت الملائكة إلى لوط وهو يعمل في أرض له فدعاهم إلى الضيافة فقالوا إنا ضيوفك الليلة وكان الله قد عهد إلى جبريل ألا يعذبهم حتى يشهد عليهم لوط ثلاث شهادات فلما توجه بهم لوط إلى الضيافة ذكر ما يعمل قومه من الشر فمشى معهم ساعة ثم التفت إليهم فقال أما تعلمون ما يعمل أهل هذه القرية ؟ ما أعلم على وجه الأرض شراً منهم أين أذهب بكم ؟ إلى قومي وهم أشر خلق الله ، فالتفت جبريل إلى الملائكة فقال احفظوها هذه واحدة ثم مشى معهم ساعة فلما توسط القرية وأشفق عليهم واستحيا منهم قال أما تعلمون ما يعمل أهل هذه القرية ؟ ما أعلم على وجه الأرض أشراً منهم إن قومي أشر خلق الله فالتفت جبريل إلى الملائكة فقال احفظوا هاتان اثنتان ، فلما انتهى إلى باب الدار بكى حياء منهم وشفقة عليهم فقال إن قومي أشر خلق الله ؟ أما تعلمون ما يعمل أهل هذه القرية ؟ ما أعلم على وجه الأرض أهل قرية شراً منهم .

فقال جبريل للملائكة احفظوا هذه ثلاث قد حق العذاب فلما ذهبت عجوزة عجوز السوء فصعدت فلوحث بثوبها فأتاها الفساق يهرعون سراعاً قالوا ما عندك ؟ قالت ضيف لوط قوماً ما رأيت قط أحسن وجوهاً منهم ولا أطيب ريحاً منهم فهرعوا يسارعون إلى الباب فعالجهم لوط على الباب فذافعه طويلاً وهو داخل وهم خارج يناشدهم الله يقول ﴿هؤلاء بناتي هن أطهر لكم﴾ فقام الملك فلز بالباب - يقول فشده - واستأذن جبريل في عقوبتهم فأذن الله له فقام في الصورة التي يكون فيها في السماء ، فنشر جناحه - وجبريل جناحان - وعليه وشاح من در منظوم وهو براق الشايب أجلى الجبين ورأسه حبك حبك مثل المرجان وهو اللؤلؤ كأنه الثلج ورجلاه إلى الخضرة فقال يا لوط ﴿إنا رسل ربك لن يصلوا إليك﴾ امض يا لوط عن الباب ودعني وإياهم ، فتحنى لوط عن الباب فخرج إليهم فنشر جناحه فضرب به وجوههم ضربة شدخ أعينهم فصاروا عمياً لا يعرفون الطريق ، ثم أمر لوط فاحتمل بأهله في ليلته قال ﴿فأسر بأهلك بقطع من الليل﴾ وروي عن محمد بن كعب وقتادة والسدي نحو هذا .

فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَلَيْهِمْ سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنصُودٍ ﴿٨٢﴾ مُسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ ۚ

وَمَا هِيَ مِنَ الظَّلِيمِينَ بِعَبِيدٍ ﴿٨٣﴾

يقول تعالى : ﴿فلما جاء أمرنا﴾ وكان ذلك عند طلوع الشمس ﴿جعلنا عليها﴾ وهي سدوم ﴿سافِلَهَا﴾ كقولهم ﴿فغشاها ما غشى﴾ أي أمطرنها عليها حجارة من سجيل وهي بالفارسية حجارة من طين قاله ابن عباس وغيره وقال بعضهم أي من سنك وهو الحجر وكل وهو الطين وقد قال في الآية الأخرى حجارة من طين أي مستحجرة قوية شديدة ، وقال بعضهم مشوية ، وقال البخاري سجيل : الشديد الكبير ، سجيل وسجين اللام والنون أختان ، وقال تميم بن مقبل : ورجلة يضربون البيض صاحبة ضرباً تواصت به الأبطال سجيناً

وقوله ﴿منضود﴾ قال بعضهم منضودة في السماء أي معدة لذلك وقال آخرون ﴿منضود﴾ أي يتبع بعضها بعضاً في نزولها عليهم وقوله ﴿مسومة﴾ أي معلمة محتومة عليها أسماء أصحابها كل حجر مكتوب عليه اسم الذي ينزل عليه وقال قتادة وعكرمة ﴿مسومة﴾ مطوقة بها نضح من حمرة وذكروا أنها نزلت على أهل البلد وعلى المتفرقين في القرى مما حولها فينا أحدهم يكون عند الناس يتحدث إذ جاءه حجر من السماء فسقط عليه من بين الناس فدمره فتبعهم الحجارة من سائر البلاد حتى أهلكتهم عن آخرهم فلم يبق منهم أحد ، وقال مجاهد أخذ جبريل قوم لوط من سرحهم ودورهم مملهم بمواشيهم وأمتعتهم ورفعهم حتى سمع أهل السماء نباح كلابهم ثم كفأها ، وكان مملهم على حوافي جناحه الأيمن قال ولما قلبها كان أول ما سقط منها شرفاتها ، وقال قتادة بلغنا أن جبريل أخذ بعروة القرية الوسطى ثم ألوى بها إلى جو السماء حتى سمع أهل السماء ضواغي كلابهم ثم دمر بعضهم على بعض ثم اتبع شذاذ القوم صخراً قال وذكر لنا أنهم كانوا أربع قرى في كل قرية مائة ألف وهي رواية ثلاث قرى الكبرى منها سدوم ، قال وبلغنا أن إبراهيم عليه السلام كان يشرف على سدوم ويقول سدوم يوم هالك وفي رواية عن قتادة وغيره بلغنا أن جبريل عليه السلام لما أصبح نشر جناحه فانتسف بها أرضهم بما فيها من قصورها ودوابها وحجارتها وشجرها وجميع ما فيها فضمها في جناحه فحواها وطواها في جوف جناحه ثم صعد بها إلى السماء الدنيا حتى سمع سكان السماء أصوات الناس والكلاب وكانوا أربعة آلاف ألف ثم قلبها فأرسلها إلى الأرض منكوسة ودمدم بعضها على بعض فجعل عاليها سافلها ثم أتبعها حجارة من سجيل ، وقال محمد بن كعب القرظي كانت قرى قوم لوط خمس قرىات سدوم وهي العظمى وصعبه وصعوذة وغمرة ودوحاه احتملها جبريل بجناحه ثم صعد بها حتى إن أهل السماء الدنيا ليسمعون نايحة كلابها وأصوات دجاجها ثم كفأها على وجهها ثم أتبعها الله بالحجارة ، يقول الله تعالى : ﴿جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل﴾ فأهلكها الله وما حولها من المؤتفكات ، وقال السدي لما أصبح قوم لوط نزل جبريل فاقطلع الأرض من سبع أرضين فحملها حتى بلغ بها السماء حتى سمع أهل السماء الدنيا نباح كلابهم وأصوات ديوكهم ثم قلبها فقتلهم فذلك قوله ﴿المؤتفكة أهوى﴾ ومن لم يمت حتى سقط للأرض أمطر الله عليه وهو تحت الأرض الحجارة ومن كان منهم شذاً في الأرض يتبعهم في القرى فكان الرجل يتحدث فيأتيه الحجر فيقتله فذلك قوله عز وجل : ﴿وأمطرنا عليهم﴾ أي في القرى حجارة من سجيل هكذا قال السدي وقوله : ﴿وما هي من الظالمين بعبيد﴾ أي وما هذه النعمة ممن تشبه بهم في ظلمهم بعبيد عنه ، وقد ورد في الحديث المروي في السنن عن ابن عباس مرفوعاً «من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به» وذهب الإمام الشافعي في قول عنه وجماعة من العلماء إلى أن اللانط يقتل سواء كان محصناً أو غير محصن عملاً بهذا الحديث ، وذهب الإمام أبو حنيفة أنه يلقي من شاهر ويتبع بالحجارة كما فعل الله بقوم لوط والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب .

﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ﴾

﴿إِنِّي أَرَأَيْتُمْ يَصْخِرُ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ﴾

يقول تعالى ولقد أرسلنا إلى مدين وهم قبيلة من العرب كانوا يسكنون بين الحجاز والشام قريباً من معان . بلاداً تعرف بهم يقال لها مدين فأرسل الله إليهم شعيباً وكان من أشرفهم نسباً ، ولهذا قال ﴿أخاهم شعيباً﴾ يأمرهم بعبادة الله تعالى وحده لا شريك له وينهاهم عن التطفيف في المكيال والميزان ﴿إني أراكم بخير﴾ أي في معيشتكم ورزقكم وإني أخاف أن تسلبوا ما أنتم فيه بانتهاكم محارم الله ﴿وإني أخاف عليكم عذاب يوم محيط﴾ أي في الدار الآخرة .

﴿وَيَقَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾

﴿يَقِيَّتُ اللَّهُ خَيْرَ لَكُمْ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِمُحْفِظٍ﴾

ينهاهم أولاً عن نقص المكيال والميزان إذا أعطوا الناس ، ثم أمرهم بوفاء الكيل والوزن بالقسط آخذين ومعطين ونهاهم عن العتو في الأرض بالفساد وقد كانوا يقطعون الطريق ، وقوله ﴿بقية الله خير لكم﴾ قال ابن عباس : رزق الله خير لكم وقال الحسن رزق الله خير لكم من بخسكم الناس ، وقال الربيع بن أنس وصية الله خير لكم ، وقال مجاهد طاعة

الله وقال قتادة حظكم من الله خير لكم ، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم الهلاك في العذاب والبقية في الرحمة ، وقال أبو جعفر بن جرير ﴿بقية الله خير لكم﴾ أي ما يفضل لكم من الريح بعد وفاء الكيل والميزان خير لكم من أخذ أموال الناس قال وقد روي هذا عن ابن عباس قلت ويشبه قوله تعالى : ﴿قل لا يستوي الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث﴾ الآية ، وقوله ﴿وما أنا عليكم بحفيظ﴾ أي بربيق ولا حفيظ أي افعلوا ذلك لله عز وجل لا تفعلوه ليراكم الناس بل لله عز وجل .

قَالُوا يَسْعَيْبُ أَصْلُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ تَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَأَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ

الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾

يقولون له على سبيل التهكم قبحهم الله ﴿أصلتك﴾ قال الأعمش أي قراءتك ﴿تأمرك أن تترك ما يعبد آبؤنا﴾ أي الأوثان والأصنام ﴿أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء﴾ فترك التطفيف عن قولك وهي أموالنا نفعل فيها ما نريد ، قال الحسن في قوله ﴿أصلتك تأمرك أن تترك ما يعبد آبؤنا﴾ أي والله إن صلته لتأمرهم أن يتركوا ما كان يعبد آبؤهم ، وقال الثوري في قوله ﴿أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء﴾ يعنون الزكاة ﴿إنك لأنت الحليم الرشيد﴾ قال ابن عباس وميمون بن مهران وابن جرير وأسلم وابن جرير يقولون ذلك أعداء الله على سبيل الاستهزاء قبحهم الله لعنهم عن رحمة وقد فعل .

قَالَ يَقَوْمُ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيْتِهِ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَكُمْ عَنْهُ

إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾

يقول لهم هل رأيتم يا قوم إن كنت ﴿على بيته من ربي﴾ أي على بصيرة فيما ادعوا إليه ﴿ورزقني منه رزقاً حسناً﴾ قيل أراد النبوة وقيل أراد الرزق الحلال ويحتمل الأمرين ، وقال الثوري ﴿وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه﴾ أي لا أنهاكم عن الشيء وأخالف أنا في السر فأفعله خفية عنكم كما قال قتادة في قوله ﴿وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه﴾ يقول لم أكن أنهاكم عن أمر وأرتكبه ﴿إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت﴾ أي فيما أمركم وأنهاكم إنما أريد إصلاحكم جهدي وطاقتي ﴿وما توفيقي﴾ أي في إصابة الحق فيما أريده ﴿إلا بالله عليه توكلت﴾ في جميع أموري ﴿وإليه أُنِيبُ﴾ أي أرجع قاله مجاهد قال الإمام أحمد حدثنا عفان حدثنا حماد بن سلمة حدثنا أبو قرعة سويد بن حجر الباهلي عن حكيم بن معاوية عن أبيه أن أخاه مالكا قال يا معاوية إن محمداً أخذ جبراني فانطلق إليه فإنه قد كلمك وعرفك فانطلقت معه فقال : دع لي جبراني فقد كانوا أسلموا فأعرض عنه فقام مغضباً فقال : أما والله لئن فعلت إن الناس يزعمون أنك لتأمرنا بالأمر وتخالف إلى غيره وجعلت أجره وهو يتكلم فقال رسول الله ﷺ «ما تقول؟» فقال إنك والله لئن فعلت ذلك إن الناس ليزعمون أنك لتأمر بالأمر وتخالف إلى غيره . قال فقال «أوقد قالوها - أي قائلهم - ولئن فعلت ما ذاك إلا علي وما عليهم من ذلك من شيء أرسلوا له جيرانه» وقال أيضاً حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده قال : أخذ النبي ﷺ ناساً من قومي في نهمة فحبسهم فجاء رجل من قومي إلى رسول الله ﷺ وهو يحطّب فقال يا محمد علام تحبس جبراني ؟ فصمت رسول الله ﷺ فقال : إن ناساً ليقولون إنك تنهى عن الشيء وتستخلي به فقال النبي ﷺ «ما تقول؟» قال فجعلت أعرض بينها كلاماً مخافة أن يسمعها فيدعو على قومي دعوة لا يقلحون بعدها أبداً فلم يزل رسول الله ﷺ حتى فهمها فقال «قد قالوها أو قائلها منهم والله لو فعلت لكان علي وما كان عليهم خلوا عن جيرانه» ومن هذا القليل الحديث الذي رواه الإمام أحمد حدثنا أبو عامر حدثنا سليمان بن بلال عن ربيعة بن أبي عبد الرحمن عن عبد الملك بن سعيد بن سويد الأنصاري قال سمعت أبا حميد وأبا أسيد يقولون عنه ﷺ أنه قال «إذا سمعتم الحديث عني تعرفه قلوبكم ، وتلين له أشعاركم وأبشاركم ، وترون أنه منكم قريب فأنأ أولاكم به ، وإذا سمعتم الحديث عني تنكروه قلوبكم وتنفر منه أشعاركم وأبشاركم وترون أنه منكم بعيد فأنأ أبعدكم منه» إسناده صحيح . وقد أخرج مسلم بهذا السند حديث «إذا دخل أحدكم المسجد فليقل اللهم افتح لي أبواب رحمتك ، وإذا خرج فليقل اللهم إني أسألك من فضلك» ومعناه والله أعلم مها بلغكم عني من خير فأنأ أولاكم به . ومهما يكن من مكروه فأنأ أبعدكم منه ﴿وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه﴾ وقال قتادة عن عروة عن الحسن العرنبي عن يحيى بن الزبارة عن مسروق قال : جاءت امرأة إلى ابن مسعود فقالت تنهى عن

الواصلة؟ قال نعم ، قالت فعله بعض نساك ، فقال ما حفظت وصية العبد الصالح إذا ﴿وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنياكم عنه﴾ وقال عثمان بن أبي شيبة حدثنا جرير عن أبي سليمان الصبي قال كانت نحيثنا كتب عمر بن عبد العزيز فيها الأمر والنهي فيكتب في آخرها وما كنت من ذلك إلا كما قال العبد الصالح ﴿وما توفقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب﴾ .

وَيَقُولُ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمَ لُوطٍ مِنْكُمْ
بِعَيْدٍ ﴿٨١﴾ وَأَسْتَغْفِرُكُمْ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٨٢﴾

يقول لهم ﴿يا قوم لا يجرمنكم شقائي﴾ أي لا تحملنكم عداوتي وبغضي على الإصرار على ما أنتم عليه من الكفر والفساد فيصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح وقوم هود وقوم صالح وقوم لوط من النعمة والعذاب وقال قتادة ﴿ويا قوم لا يجرمنكم شقائي﴾ يقول لا يحملنكم فراقي ، وقال السدي عداوتي ، على أن تمادوا في الضلال والكفر فيصيبكم من العذاب ما أصابهم . وقال ابن أبي حاتم حدثنا ابن عوف الحمصي حدثنا أبو المغيرة عبد القدوس بن الحجاج حدثنا ابن أبي عيينة حدثني عبد الملك بن أبي سليمان عن ابن أبي ليل الكندي قال : كنت مع مولاي أمسك دابته وقد أحاط الناس بعثمان بن عفان إذا أشرف علينا من داره فقال ﴿يا قوم لا يجرمنكم شقائي أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح﴾ يا قوم لا تقتلونني إنكم إن قتلتموني كنتم هكذا وشيك بين أصابعه ، وقوله ﴿وما قوم لوط منكم بعيد﴾ قيل المراد في الزمان ، قال قتادة يعني إنما هلكوا بين أيديكم بالأمس ، وقيل في المكان ويمتثل الأمران ﴿واستغفروا ربكم﴾ من سالف الذنوب ﴿ثم توبوا إليه﴾ فيها تستقبلونه من الأعمال السيئة وقوله ﴿إن ربي رحيم ودود﴾ لمن تاب .

قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِمَّا نَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بَعِزٌّ
قَالَ يَقُولُونَ آرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَانْتَحَدُكُمْ وَرَاءَ كُمْ ظَهْرِي إِنَّا نَرَى رَبِّي يَمَازِعُكُمْ مَحِيطٌ ﴿٨٣﴾

يقولون ﴿يا شعيب ما نفقه﴾ ما نفهم ﴿كثيراً﴾ من قولك ﴿وإننا لنراك فينا ضعيفاً﴾ قال سعيد بن جبير والثوري وكان ضرير البصر ؛ وقال الثوري كان يقال له خطيب الأنبياء ؛ قال السدي ﴿وإننا لنراك فينا ضعيفاً﴾ قال أنت واحد ، وقال أبو روق يعنون ذليلاً لأن عشيرتك ليسوا على دينك ﴿ولولا رهطك لرجمناك﴾ أي قومك لولا معزتهم علينا لرجمناك قيل بالحجارة وقيل لسببناك ﴿وما أنت علينا بعزير﴾ أي ليس عندنا لك معزة ﴿قال يا قوم أرهطي أعز عليكم من الله﴾ يقول أتركوني لأجل قومي ولا تتركوني إعظاماً لجناب الرب تبارك وتعالى أن تنالوا نبيه بمساءة وقد اتخذتم كتاب الله ﴿وراءكم ظهري﴾ أي نبذتموه خلفكم لا تطيعونه ولا تعظمونه ﴿إن ربي بما تعملون محيط﴾ أي هو يعلم جميع أعمالكم وسيجزبكم .

وَيَقُولُوا أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَمِلْتُ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ
كَذِبٌ ۖ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٨٤﴾ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَحْنُ شَاعِيبٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ رَجِمُوا مِنَّا وَأَخَذَتِ
الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جِثْمٍ ﴿٨٥﴾ كَانُوا يَنْشُرُونَ فِيهَا الْأَبْعَادَ الْمَدِينِ كَمَا بَعْدَتْ سُورٌ ﴿٨٦﴾

لما يس نبي الله شعيب من استجابتهم له قال يا قوم ﴿اعملوا على مكانتكم﴾ أي طريقتكم وهذا تهديد شديد ﴿إني عامل﴾ على طريقتي ﴿سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ومن هو كاذب﴾ أي مني ومنكم ﴿وارتقبوا﴾ أي انتظروا

﴿إني معكم رقيب﴾ قال الله تعالى : ﴿ولما جاء أمرنا نجيتنا شعبياً والذين آمنوا معه برحمة منا وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جائعين﴾ وقوله جائعين أي هامدين لا حراك بهم . وذكر هنا أنه أتتهم صيحة ، وفي الأعراف رجفة وفي الشعراء عذاب يوم الظلة وهم أمة واحدة اجتمع عليهم يوم عذابهم هذه النقم كلها ، وإنما ذكر في كل سياق ما يناسبه ففي الأعراف لما قالوا ﴿لنخرجنك يا شميم والذين آمنوا معك من قريتنا﴾ ناسب أن يذكر هناك الرجفة فرجفت بهم الأرض التي ظلموا بها وأرادوا إخراج نبيهم منها ، وهما لما أساءوا الأدب في مقاتلتهم على نبيهم ذكر الصيحة التي استلبتهم وأخذتهم ، وفي الشعراء لما قالوا ﴿فأسقط علينا كسفاً من السماء إن كنت من الصادقين﴾ قال ﴿فأخذهم عذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم﴾ وهذا من الأسرار الدقيقة والله الحمد والمنة كثيراً دائماً ، وقوله ﴿كان لم يغنوا فيها﴾ أي يعيشوا في دارهم قبل ذلك ﴿ألا بعداً لمدن كما بعدت ثمود﴾ وكانوا جيرانهم قريباً منهم في الدار وشبيهاً بهم في الكفر وقطع الطريق وكانوا عرباً مثلهم .

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَأَتٰبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿١٦٧﴾ يَدْعُوهُم بِيَوْمِ الْقِيٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَيَسُّ أَلْوَرْدُ الْمَوْرُودُ ﴿١٦٨﴾ وَأَتٰبَعُوا فِي هٰذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيٰمَةِ يُسُّ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ ﴿١٦٩﴾

يقول تعالى مخبراً عن إرسال موسى بآياته ودلالاته الباهرة إلى فرعون ملك القبط وملكه ﴿فاتبعوا أمر فرعون﴾ أي منهجه ومسلكه وطريقته في الغي ﴿وما أمر فرعون برشيد﴾ أي ليس فيه رشد ولا هدى . وإنما هو جهل وضلال وكفر وعناد ، وكما أنهم اتبعوه في الدنيا وكان مقدمهم ورئيسهم وكذلك هو يقدمهم يوم القيامة إلى نار جهنم فأوردهم إياها وشربوا من حياض رداها ؛ وله في ذلك الحظ الأوفر ، من العذاب الأكبر ، كما قال تعالى : ﴿فمضى فرعون الرسول فأخذناه أخذاً وبيلاً﴾ وقال تعالى : ﴿فكذب وعصى﴾ ثم أدبر يسى ﴿فحشر فنادى﴾ فقال أنا ربكم الأعلى ﴿فأخذه الله نكال الآخرة والأولى﴾ إن في ذلك لعبرة لمن يخشى ﴿وقال تعالى : ﴿يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار ، وبس الورود المورود﴾ وكذلك شأن المتبعين يكونون موفرين في العذاب يوم القيامة كما قال تعالى : ﴿لكل ضعف ولكن لا تعلمون﴾ وقال تعالى إخباراً عن الكفرة أنهم يقولون في النار : ﴿ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا ربنا أنهم ضعفين من العذاب﴾ الآية ، وقال الإمام أحمد حدثنا هشيم حدثنا أبو الجهم عن الزهري عن أبي سلمة عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ وامرؤ القيس حامل لواء شعراء الجاهلية إلى النار، وقوله ﴿واتبعوا في هذه لعنة ويوم القيامة﴾ الآية ، أي أتبعناهم زيادة على عذاب النار لعنة في الدنيا ﴿ويوم القيامة بسس الرفد المرفود﴾ قال مجاهد : زيدوا لعنة يوم القيامة فتلك لعنتان ، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﴿بسس الرفد المرفود﴾ قال لعنة الدنيا والآخرة وكذا قال الضحاك وقادة وهو كقولهم ﴿وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار ويوم القيامة لا يتصرون﴾ وأتبعناهم في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة هم من المقبوحين ﴿وقال تعالى ﴿النار يعرضون عليها غدواً وعشياً ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب﴾ .

ذٰلِكَ مِنْ اٰنْبِآءِ الْقُرٰنِ نَقَضَهُ عَلَيْهِ مِنْهَا قٰبِعٌ وَحٰصِيْدٌ ﴿١٦٦﴾ وَمَا ظَلَمْتَهُمْ وَلٰكِنْ ظَلَمُوْا اَنْفُسَهُمْ فَمَا اَغْنَتْ عَنْهُمْ اٰلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُوْنَ مِنْ دُوْنِ اللّٰهِ مِنْ شَيْءٍ لَّمَّا جَآءَ اَمْرٌ رَّبِّكَ وَمَا زَادُوْهُمْ غَيْرَ تَتٰبٍ ﴿١٦٧﴾

لما ذكر تعالى خير الأنبياء وما جرى لهم مع أمهم وكيف أهلك الكافرين ونجى المؤمنين قال ﴿ذلك من آباء القرى﴾ أي أخبارهم ﴿نقصه عليك منها قائم﴾ أي عامر ﴿وحصيد﴾ أي هالك ﴿وما ظلمناهم﴾ أي إذا أهلكناهم ﴿ولكن ظلموا أنفسهم﴾ بتكذيبهم رسلنا وكفرهم بهم ﴿فما أغنت عنهم آلهتهم﴾ أو آلتهم التي يعبدونها ويدعونها ﴿من دون الله من شيء﴾ ما نفعوهم ولا أنقذوهم لما جاء أمر الله بإهلاكهم ﴿وما زادوهم غير تتيب﴾ قال مجاهد وقادة وغيرهما أي غير تحسير وذلك أن سبب هلاكهم ودمارهم إنما كان باتباعهم تلك الآلهة فلهدأ خسروا في الدنيا والآخرة .

وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٤٦﴾

يقول تعالى وكما أهلكتنا أولئك القرون الظالمة المكذبة لرسولنا كذلك نفعل بأشباههم ﴿إن أخذه اليم شديد﴾ وفي الصحيحين عن أبي موسى رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ ﴿إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته﴾ ثم قرأ رسول الله ﷺ ﴿وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة﴾ الآية .

إِن فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّمَن خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٤٧﴾ وَمَا تَوْخَرُوهُ إِلَّا
لِأَجْلِ مَعْدُودٍ ﴿١٤٨﴾ يَوْمَ يَأْتُ لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمَنَّهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٤٩﴾

يقول تعالى إن في إهلاكنا الكافرين وإنباتنا المؤمنين ﴿آية﴾ أي عظة واعتبارا على صدق موعدنا في الآخرة ﴿إننا لننصر رسولنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد﴾ وقال تعالى ﴿فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين﴾ الآية . وقوله ﴿ذلك يوم مجموع له الناس﴾ أي أولهم وآخرهم كقوله ﴿وحشرناهم فلم نغادر منهم أحدا﴾ ﴿وذلك يوم مشهود﴾ أي عظيم تحضره الملائكة ويجتمع فيه الرسل وتحشر الخلائق بأسرهم من الإنس والجن والطيور والوحوش والدواب ويحكم فيه العادل الذي لا يظلم مثقال ذرة إن تك حسنة يضاعفها ، وقوله ﴿وما تؤخره إلا لأجل معدود﴾ أي ما تؤخر إقامة القيامة إلا لأنه قد سبقت كلمة الله في وجود أناس معدودين من ذرية آدم وضرب مدة معينة إذا انقطعت وتكامل وجود أولئك المقدر خروجهم قامت الساعة ولهذا قال ﴿وما تؤخره إلا لأجل معدود﴾ أي لمدة مؤقتة لا يزداد عليها ولا يتقصص منها ﴿يوم يأت لا تكلم نفس إلا بإذنه﴾ أي يوم يأتي يوم القيامة لا يتكلم أحد إلا بإذن الله كقوله ﴿لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا﴾ وقال ﴿وخشعت الأصوات للرحمن﴾ الآية . وفي الصحيحين في حديث الشفاعة ﴿ولا يتكلم يومئذ إلا الرسل ودعوى الرسل يومئذ اللهم سلم سلم﴾ وقوله ﴿فمنهم شقي وسعيد﴾ أي فمن أهل الجمع شقي ومنهم سعيد كما قال ﴿فريق في الجنة وفريق في السعير﴾ وقال الحافظ أبو يعلى في مسنده حدثنا موسى بن حسان حدثنا عبد الملك بن عمرو حدثنا سليمان أبو سفيان حدثنا عبد الله بن دينار عن ابن عمر عن عمر قال : لما نزلت ﴿فمنهم شقي وسعيد﴾ سألت النبي ﷺ فقلت يا رسول الله : علام نعمل ؟ على شيء قد فرغ منه أم على شيء لم يفرغ منه ، فقال ﴿على شيء قد فرغ منه يا عمر وجررت به الأقلام ، ولكن كل ميسر لما خلق له﴾ ثم بين تعالى حال الأشقياء وحال السعداء فقال :

فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَنفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٥٠﴾ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ

إِنَّ رَبَّكَ فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٥١﴾

يقول تعالى ﴿لهم فيها زفير وشهيق﴾ قال ابن عباس الزفير في الخلق والشهيق في الصدر أي تنفسهم زفير وأخذهم النفس شهيق ، لما هم فيه من العذاب عيادا بالله من ذلك ﴿خالدين فيها ما دامت السموات والأرض﴾ قال الإمام أبو جعفر بن جرير : من عادة العرب إذا أرادت أن تصف الشيء بالدوام أبدا قالت هذا دائم دوام السموات والأرض ، وكذلك يقولون هو باق ما اختلف الليل والنهار ، وما سمر أبناء سمير وما لآلات العير بأذنانها يعنون بذلك كله أبدا فخطبهم جل ثناؤه بما يتعارفونه بينهم فقال ﴿خالدين فيها ما دامت السموات والأرض﴾ قلت : ويحتمل أن المراد بما دامت السموات والأرض الجنس لأنه لا بد في عالم الآخرة من سموات وأرض كما قال تعالى ﴿يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات﴾ ولهذا قال الحسن البصري في قوله ﴿ما دامت السموات والأرض﴾ قال يقول ساء غير هذه السماء وأرض غير هذه فما دامت تلك السماء وتلك الأرض . وقال ابن أبي حاتم ذكر عن سفيان بن حسين عن الحكم عن مجاهد عن ابن عباس قوله ﴿ما دامت السموات والأرض﴾ قال لكل جنة سماء وأرض ، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ما دامت الأرض أرضا والسماء سماء . وقوله ﴿إلا ما شاء ربك إن ربك فعال لما يريد﴾ كقوله ﴿النار مثواكم خالدين فيها إلا ما شاء الله إن ربك حكيم عليم﴾ وقد اختلف المفسرون في المراد من هذا الاستثناء على أقوال كثيرة حكاهما الشيخ أبو الفرج بن

الجوزي في كتابه زاد المسير ، وغيره من علماء التفسير ، ونقل كثيرا منها الإمام أبو جعفر بن جرير رحمه الله في كتابه واختار هو ما نقله عن خالد بن معدان والضحاك وقاتدة وابن سنان ورواه ابن أبي حاتم عن ابن عباس والحسن أيضا أن الاستثناء عائد على العصاة من أهل التوحيد ممن يخرجهم الله من النار بشفاعة الشافعين ، من الملائكة والنبیین والمؤمنين ، حتى يشفعون في أصحاب الكبائر ثم تأتي رحمة أرحم الراحمين فتخرج من لم يعمل خيرا قط وقال يوما من الدهر لا إله إلا الله كما وردت بذلك الأخبار الصحيحة المستفيضة عن رسول الله ﷺ بمضمون ذلك من حديث أنس وجابر وأبي سعيد وأبي هريرة وغيرهم من الصحابة ولا يبقى بعد ذلك في النار إلا من وجب عليه الخلود فيها ولا يحيد له عنها ، وهذا الذي عليه كثير من العلماء قديماً وحديثاً في تفسير هذه الآية الكريمة . وقد روي في تفسيرها عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وابن مسعود وابن عباس وأبي هريرة وعبد الله بن عمرو وجابر وأبي سعيد من الصحابة ، وعن أبي مجلز والشعبي وغيرهما من التابعين ، وعن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم وإسحاق بن راهويه وغيرهما من الأئمة في أقوال غريبة وورد حديث غريب في معجم الطبراني الكبير عن أبي أمامة صدي بن عجلان الباهلي ولكن سنده ضعيف والله أعلم . وقال قتادة : الله أعلم بشيئه ، وقال السدي هي منسوخة بقوله ﴿خالدين فيها أبداً﴾ .

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سَعِدُوا ففِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرٌ مَجْدُودٌ﴾

يقول تعالى ﴿وَأما الذين سعدوا﴾ وهم أتباع الرسل ﴿ففي الجنة﴾ أي فمأواهم الجنة ﴿خالدين فيها﴾ أي ماكنين فيها أبداً ﴿ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك﴾ معنى الاستثناء ههنا أن دوامهم فيها هم فيه من النعيم ليس أمرا واجبا بذاته بل هو موكول إلى مشيئة الله تعالى فله المنة عليهم دائما ولهذا يلهمون التسييح والتحميد كما يلهمون النفس . وقال الضحاك والحسن البصري هي في حق عصاة الموحدين الذين كانوا في النار ثم أخرجوا منها وعقب ذلك بقوله ﴿عطاء غير مجذوذ﴾ أي غير مقطوع قاله مجاهد وابن عباس وأبو العالية وغير واحد لثلاث يتوهم متوهم بعد ذكره المشيئة أن ثم انقطاع أو ليس أو شيء بل حتم له بالدوام وعدم الانقطاع كما بين هناك أن عذاب أهل النار في النار دائما مردود إلى مشيئته وأنه بعدله وحكمته عذبهم ولهذا قال ﴿إن ربك فعال لما يريد﴾ كما قال ﴿لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون﴾ وهنا طيب القلوب وثبت المقصود بقوله ﴿عطاء غير مجذوذ﴾ وقد جاء في الصحيحين ويؤتى بالموت في صورة كيش أملح فيذبح بين الجنة والنار ثم يقال يا أهل الجنة خلود فلا موت ، ويا أهل النار خلود فلا موت ، وفي الصحيح أيضا «فيقال يا أهل الجنة إن لكم أن تعيشوا فلا تموتوا أبدا وإن لكم أن تشبوا فلا تموتوا أبدا وإن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبدا وإن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبدا» .

﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاءَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوفُونَ نَصِيحِهِمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ﴾
 ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ﴾

﴿وَإِنْ كَلَّمَا لِيُوقِنْتَ مِنْ رَبِّكَ أَعْمَلْتُمْ إِتْمَامًا يَأْمُرُونَ بِحَسَنَاتٍ﴾

يقول تعالى ﴿فلا تك في مرية مما يعبد هؤلاء﴾ المشركون أنه باطل وجهل وضلال فإنهم إنما يعبدون ما يعبد آباؤهم من قبل أي ليس لهم مستند فيما هم فيه إلا اتباع الآباء في الجهالات وسيجزيم الله على ذلك أتم الجزاء فيعذب كافرهم عذابا لا يعذبه أحدا وإن كان لهم حسنات فقد وفاهم الله إياها في الدنيا قبل الآخرة . قال سفيان الثوري عن جابر الجعفي عن مجاهد عن ابن عباس ﴿وإنما لموفوهم نصيهم غير منقوص﴾ قال ما وعدوا من خير أو شر . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم لموفوهم من العذاب نصيهم غير منقوص ثم ذكر تعالى أنه أتى موسى الكتاب فاختلف الناس فيه فمن مؤمن به ومن كافر به فلك بمن سلف من الأنبياء قبلك يا محمد أسوة فلا يغيظك تكذيبهم لك ولا يهملك ذلك ﴿ولولا كلمة سبقت من ربك لقضي بينهم﴾ قال ابن جرير لولا ما تقدم من تأجيله العذاب إلى أجل معلوم لقضى الله بينهم ويحتمل أن يكون المراد بالكلمة أنه لا يعذب أحدا إلا بعد قيام الحجة عليه وإرسال الرسول إليه كما قال ﴿وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا﴾ فإنه قد قال في الآية الأخرى ﴿ولولا كلمة سبقت من ربك لكان لزاما وأجل مسمى﴾ فاصبر على ما

يقولون ﴿ ثم أخبر تعالى أنه سيجمع الأولين والآخرين من الأمم ويجزيهم بأعمالهم إن خيراً فخير وإن شراً فشر فقال ﴿ وإن كلا لما ليوفينهم ربك أعمالهم إنه بما يعملون خبير ﴾ أي علمهم بأعمالهم جميعها جليها وحقيقتها صغيرها وكبيرها وفي هذه الآية قراءات كثيرة يرجع معناها إلى هذا الذي ذكرناه كما في قوله تعالى : ﴿ وإن كل لما جمع لدينا محضرون ﴾ .

فَأَسْتَقِيمَ كَمَا أَمَرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْفَؤْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٢٢﴾ وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ

النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾

يأمر تعالى رسوله وعباده المؤمنين بالثبات والدوام على الاستقامة وذلك من أكبر العون على النصر على الأعداء ومخالفة الأضداد ونهى عن الطغيان وهو البغي فإنه مصرعة حتى ولو كان على مشرك وأعلم تعالى أنه بصير بأعمال العباد لا يغفل عن شيء ولا يخفى عليه شيء .

وقوله ﴿ ولا تركنوا إلى الذين ظلموا ﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس لا تداهنوا وقال العوفي عن ابن عباس هو الركون إلى الشرك وقال أبو العالية لا ترضوا بأعمالهم وقال ابن جرير عن ابن عباس ولا تميلوا إلى الذين ظلموا وهذا القول حسن أي لا نستعينوا بالظلمة فتكونوا كأنكم قد رضيتم بأعمالهم ﴿ فتمسكهم النار وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون ﴾ أي ليس لكم من دونه من ولي ينقذكم ولا ناصر يخلصكم من عذابه .

وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَرُفُلًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبُنَّ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرٌ لِلذَّكِّرِينَ ﴿١٢٤﴾ وَأَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ

لَا يُضَيِّعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٥﴾

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﴿ واقم الصلاة طرفي النهار ﴾ قال يعني الصبح والمغرب وكذا قال الحسن وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، وقال الحسن في رواية قتادة والضحاك وغيرهم هي الصبح والعصر وقال مجاهد في أول النهار والظهر والعصر مرة أخرى ﴿ ووزلماً من الليل ﴾ قال ابن عباس ومجاهد والحسن وغيرهم يعني صلاة العشاء وقال الحسن في رواية ابن المبارك عن مبارك بن فضالة عنه ﴿ ووزلماً من الليل ﴾ يعني المغرب والعشاء قال رسول الله ﷺ ﴿ هما زلفا الليل والمغرب والعشاء ﴾ وكذا قال مجاهد ومحمد بن كعب وقاتدة والضحاك إنها صلاة المغرب والعشاء ، وقد يحتمل أن تكون هذه الآية نزلت قبل فرض الصلوات الخمس ليلة الإسراء فإنه إنما كان يجب من الصلاة صلاتان : صلاة قبل طلوع الشمس وصلاة قبل غروبها ، وفي أثناء الليل قيام عليه وعلى الأمة ثم نسخ في حق الأمة وثبت وجوبه عليه ثم نسخ عنه أيضاً في قول والله أعلم .

وقوله ﴿ إن الحسنات يذهبن السيئات ﴾ يقول إن فعل الخيرات يكفر الذنوب السالفة كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد وأهل السنن عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب قال : كنت إذا سمعت من رسول الله حديثاً نفعني الله بما شاء أن ينفعني منه وإذا حدثني عنه أحد استحلقتة فإذا حلف لي صدقته ، وحدثني أبو بكر وصدق أبو بكر أنه سمع رسول الله ﷺ يقول ﴿ وما من مسلم يذنب ذنباً فيتوضأ ويصلي ركعتين إلا غفر له ﴾ وفي الصحيحين عن أمير المؤمنين عثمان بن عفان أنه توضأ لهم كوضوء رسول الله ﷺ ثم قال : هكذا رأيت رسول الله يتوضأ وقال ﴿ من توضأ وضوئي هذا ثم صلى ركعتين لا يحدث فيهما نفسه غفر له ما تقدم من ذنبه ﴾ وروى الإمام أحمد وأبو جعفر بن جرير من حديث أبي عقييل زهرة بن معبد أنه سمع الحارث مولى عثمان يقول : جلس عثمان يوماً وجلسنا معه فجاءه المؤذن فدعا عثمان بماء في إناء أظنه سيكون فيه قدر مد فتوضأ ثم قال رأيت رسول الله ﷺ يتوضأ وضوئي هذا ثم قال ﴿ من توضأ وضوئي هذا ثم قام فصل صلاة الظهر غفر له ما بينه وبين صلاة الصبح ثم صلى العصر غفر له ما بينه وبين صلاة الظهر ثم صلى المغرب غفر له ما بينه وبين صلاة العصر ثم صلى العشاء غفر له ما بينه وبين صلاة المغرب ثم لعله يبيت يتمرغ ليلته إن قام فتوضأ وصلى الصبح غفر له ما بينها وبين صلاة العشاء وهن الحسنات يذهبن السيئات ﴾ وفي الصحيح عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال ﴿ أرايتم لو أن بباب أحدكم نهراً غمراً يقتسل فيه كل يوم خمس مرات هل يبقى من درنه شيئاً ؟ قالوا لا يا رسول الله قال وكذلك الصلوات الخمس يحو الله بهن الذنوب والخطايا ﴾ وقال مسلم في صحيحه حدثنا أبو الطاهر وهو

ابن سعيد قالاً حدثنا ابن وهب عن أبي صخر أن عمر بن إسحاق مولى زائدة حدثه عن أبيه عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ كان يقول «الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن ما اجتنبت الكبائر» وقال الإمام أحمد حدثنا الحكم بن نافع حدثنا إسماعيل بن عباس عن ضمضم بن زرعة عن شريح بن عبيد أن أبا رهم السلمي كان يحدث أن أبا أيوب الأنصاري حدثه أن رسول الله ﷺ كان يقول «إن كل صلاة تحط ما بين يديها من خطيئته» وقال أبو جعفر بن جرير حدثنا محمد بن إسماعيل حدثنا أبي عن ضمضم بن زرعة عن شريح بن عبيد عن أبي مالك الأشعري قال : قال رسول الله ﷺ «جعلت الصلوات كفارات لما بينهن» فإن الله قال ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ .

وقال البخاري حدثنا قتيبة بن سعيد حدثنا يزيد بن زريع عن سليمان التيمي عن أبي عثمان النهدي عن ابن مسعود أن رجلاً أصاب من امرأة قبله فأتى النبي ﷺ فأخبره فأنزل الله ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ فقال الرجل يا رسول الله ألي هذا؟ قال «ولجميع أمتي كلهم» هكذا رواه في كتاب الصلاة وأخرجه في التفسير عن مسدد عن يزيد بن زريع بنحوه ورواه مسلم وأحمد وأهل السنن إلا أبا داود من طرق عن أبي عثمان النهدي واسمه عبد الرحمن بن مل . ورواه الإمام أحمد ومسلم والترمذي والنسائي وابن جرير وهذا لفظه من طرق عن سماك بن حرب أنه سمع إبراهيم بن يزيد يحدث عن علقمة والأسود عن ابن مسعود قال جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله إني وجدت امرأة في بستان فعلت بها كل شيء غير أني لم أجامعها قبلتها ولزمتها ولم أفعل غير ذلك فافعل بي ما شئت فلم يقل رسول الله ﷺ شيئاً فذهب الرجل . فقال عمر لقد ستر الله عليه لو ستر على نفسه ، فأتبعه رسول الله ﷺ بصره ثم قال «ردوه علي» فردوه عليه فقرأ عليه ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ ذلك ذكرى للذاكرين ﴿فقال معاذ وفي رواية عمر يا رسول الله أله وحده أم للناس كافة؟ قال «بل للناس كافة» وقال الإمام أحمد حدثنا محمد بن عبيد حدثنا أبا بن إسحاق عن الصباح بن محمد عن مرة الهمداني عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ ﴿إِنَّ اللَّهَ قَسَمَ بَيْنَكُمْ أَخْلَاقَكُمْ كَمَا قَسَمَ بَيْنَكُمْ أَرْزَاقَكُمْ وَإِنَّ اللَّهَ يُعْطِي الدُّنْيَا مَنْ يَجِبُ وَمَنْ لَا يَجِبُ وَلَا يُعْطِي الدِّينَ إِلَّا مَنْ أَحَبَّ فَمَنْ أَعْطَاهُ اللَّهُ الدِّينَ فَقَدْ أَحَبَّهُ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يُسَلِّمُ عَبْدٌ حَتَّى يُسَلِّمَ قَلْبَهُ وَلِسَانَهُ وَلَا يُؤْمِنُ حَتَّى يَأْمَنَ جَارَهُ بِوَأْتِقَهُ قَالَ قُلْنَا وَمَا بِوَأْتِقَهُ يَا نَبِيَّ اللَّهِ؟ قَالَ «عَشَهُ وَظَلَمَهُ وَلَا يَكْسِبُ عَبْدٌ مَالًا حَرَامًا فَيُفِيقَ مِنْهُ فَيَبَارِكُ لَهُ فِيهِ وَلَا يُتَصَدَّقَ فَيَقْبَلُ مِنْهُ وَلَا يَتْرَكُهُ خَلْفَ ظَهْرِهِ إِلَّا كَانَ زَادَهُ إِلَى النَّارِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَمْحُو السَّيِّئَةَ بِالسَّيِّئَةِ وَلَكِنْ يَمْحُو السَّيِّئَةَ بِالْحَسَنِ إِنَّ الْحَبِيثَ لَا يَمْحُو الْحَبِيثَ» وقال ابن جرير حدثنا أبو السائب حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن إبراهيم قال كان فلان ابن معتب رجلاً من الأنصار فقال يا رسول الله دخلت على امرأة فنلت منها ما ينال الرجل من أهله إلا أنني لم أواقعها فلم يدر رسول الله ما يبجيه حتى نزلت الآية ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ ذلك ذكرى للذاكرين ﴿فدعا رسول الله فقرأها عليه وعن ابن عباس أنه عمرو بن غزيرة الأنصاري التمار وقال مقاتل هو أبو نفييل عامر بن قيس الأنصاري وذكر الخطيب البغدادي أنه أبو اليسر كعب بن عمرو . وقال الإمام أحمد حدثنا يونس وعفان قالوا حدثنا حماد يعني ابن سلمة عن علي بن زيد قال عفان أبنانا علي بن زيد عن يوسف بن مهران عن ابن عباس أن رجلاً أتى عمر فقال إن امرأة جاءت تباعه فأدخلتها الدولج فأصابت منها ما دون الجماع ، فقال ويحك لعلها مغيبة في سبيل الله؟ قال أجل ، قال فانت أبا بكر فسله . قال فاتاه فسأله فقال لعلها مغيبة في سبيل الله؟ فقال مثل قول عمر ثم أتى النبي ﷺ فقال له مثل ذلك قال «فلعلها مغيبة في سبيل الله» ونزل القرآن ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ إلى آخر الآية ، فقال يا رسول الله لي خاصة أم للناس عامة؟ فضرب يعني عمر صدره بيده وقال لا ولا نعمة عين بل للناس عامة فقال رسول الله ﷺ «صدق عمر» وروى الإمام أبو جعفر بن جرير من حديث قيس بن الربيع عن عثمان بن موهب عن موسى بن طلحة عن أبي اليسر كعب بن عمرو الأنصاري قال أتتني امرأة تباع مني بدرهم فقرأت فقلت إن في البيت قرماً أجود من هذا فدخلت فأهويت إليها فقبلتها فأتيت عمر فسألته فقال اتق الله واستر على نفسك ولا تخبرن أحداً فلم أصبر حتى أتيت أبا بكر فسألته فقال اتق الله واستر على نفسك ولا تخبرن أحداً قال فلم أصبر حتى أتيت النبي ﷺ فأخبرته فقال «أخلفت رجلاً غازیاً في سبيل الله في أهله بمثل هذا؟» حتى ظننت أنني من أهل النار حتى تمنيت أنني أسلمت ساعتئذ فأطرق رسول الله ﷺ ساعة فنزل جبريل فقال أبو اليسر فجئت فقرأت علي رسول الله ﷺ ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ ذلك ذكرى للذاكرين ﴿فقال إنسان يا رسول الله له خاصة أم للناس عامة؟ قال «لناس عامة» وقال الحافظ أبو الحسن الدارقطني حدثنا الحسين بن سهل المحاملي حدثنا موسى بن موسى حدثنا جرير عن عبد الملك بن عمير عن عبد الرحمن بن أبي ليل عن معاذ بن جبل أنه كان قاعداً عند النبي ﷺ فجاء رجل فقال يا رسول الله ما تقول في رجل أصاب من امرأة لا تحل له فلم يدع شيئاً يصيبه من امرأته إلا قد أصاب منها غير

أنه لم يجامعها؟ فقال له النبي ﷺ «توضاً وضوءاً حسناً ثم قم فصل» فأنزل الله عز وجل هذه الآية يعني قوله «وأتم الصلاة طرفي النهار» فقال معاذ أهي له خاصة أم للمسلمين عامة؟ «بل للمسلمين عامة» ورواه ابن جرير من طرق عن عبد الملك بن عمير . وقال عبد الرزاق حدثنا محمد بن مسلم عن عمرو بن دينار عن يحيى بن جعدة أن رجلاً من أصحاب النبي ﷺ ذكر امرأة وهو جالس مع رسول الله ﷺ فاستأذنه لحاجة فأذن له فذهب يطلبها فلم يجدها فأقبل الرجل يريد أن يبشر النبي ﷺ بالمطر فوجد المرأة جالسة على غدير فدفع في صدرها وجلس بين رجلها فصار ذكره مثل الهدبة فقام نادماً حتى أتى النبي ﷺ فأخبره بما صنع فقال له «استغفر ربك وصل أربع ركعات» قال وتلا عليه «وأتم الصلاة طرفي النهار وزلفاً من الليل» الآية . وقال ابن جرير حدثني عبد الله بن أحمد بن سيبويه حدثنا إسحاق بن إبراهيم حدثني عمرو بن الحارث حدثني عبد الله بن سالم عن الزبيدي سليم بن عامر أنه سمع أبا أمامة يقول إن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال يا رسول الله أقم في حد الله - مرة أو اثنتين - فأعرض عنه رسول الله ﷺ ثم أقيمت الصلاة فلما فرغ النبي ﷺ من الصلاة قال «أين هذا الرجل القائل أقم في حد الله؟» قال أنا ذا . قال أتممت الوضوء وصليت معنا أنفاً؟ قال نعم . قال «فإنك من خطيئتك كيوم ولدتك أمك فلا تعد» وأنزل الله على رسول الله ﷺ «وأتم الصلاة طرفي النهار وزلفاً من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين» وقال الإمام أحمد حدثنا عفان حدثنا حماد بن سلمة أنبأنا علي بن زيد عن أبي عثمان قال كنت مع سلمان الفارسي تحت شجرة فأخذ منها غصناً يابساً فهزه حتى تحات ورقه ثم قال : أبا عثمان ألا تسألني لم أفعل هذا قلت ولم تفعله قال هكذا فعل رسول الله ﷺ فقال : إن المسلم إذا توضأ فأحسن الوضوء ثم صل الصلوات الخمس تحات خطاياها كما يتحات هذا الورق . وقال «وأتم الصلاة طرفي النهار وزلفاً من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين» وقال الإمام أحمد حدثنا وكيع حدثنا سفيان عن حبيب بن أبي ثابت عن ميمون بن أبي شبيب عن معاذ أن رسول الله ﷺ قال له يا معاذ أتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن» وقال الإمام أحمد حدثنا وكيع حدثنا سفيان عن حبيب بن ميمون بن أبي شبيب عن أبي ذر أن رسول الله ﷺ قال «أتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن» وقال أحمد حدثنا أبو معاوية حدثنا الأعمش عن شمر بن عطية عن أشياخه عن أبي ذر قال قلت يا رسول الله أوصني ، قال «إذا عملت سيئة فأتبعها حسنة تمحها» قال قلت يا رسول الله أمن الحسنات لا إله إلا الله؟ قال «هي أفضل الحسنات» وقال الحافظ أبو يعلى الموصلي حدثنا هذيل بن إبراهيم الجماني حدثنا عثمان بن عبد الرحمن الزهري عن ولد سعد بن أبي وقاص عن الزهري عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ «ما قال عبد لا إله إلا الله في ساعة من ليل أو نهار إلا طلست ما في الصحيفة من السيئات حتى تسكن إلى مثلها من الحسنات» عثمان بن عبد الرحمن يقال له الواقصي فيه ضعف . وقال الحافظ أبو بكر البزار حدثنا بشر بن آدم وزيد بن أكرم قال حدثنا الضحاک بن مخلد حدثنا مستور بن عباد عن ثابت عن أنس أن رجلاً قال يا رسول الله ما تركت من حاجة ولا داجة فقال رسول الله ﷺ «تشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله؟» قال بلى . قال «فإن هذا يأتي على ذلك» تفرد به من هذا الوجه مستور .

فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَجَجْنَا مِنْهُمْ وَأَتَّبِعَ الَّذِينَ

ظَلَمُوا مَا أَتَرَفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿١٧٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا مُصْلِحُونَ ﴿١٧٧﴾

يقول تعالى فهلا وجد من القرون الماضية بقايا من أهل الخير ينهون عما كان يقع بينهم من الشرور والمنكرات والفساد في الأرض ، وقوله «إلا قليلاً» أي قد وجد منهم من هذا الضرب قليل لم يكونوا كثيراً وهم الذين أنجاهم الله عند حلول غضبه وفتنة نقمته ولهذا أمر الله تعالى هذه الأمة الشريفة أن يكون فيها من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر كما قال تعالى «ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون» وفي الحديث «إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه أوشك أن يعمهم الله بعقاب» ولهذا قال تعالى «فلولا كان من القرون من قبلكم أولوا بقية ينهون عن الفساد في الأرض إلا قليلاً ممن أنجينا منهم» وقوله «وأتبع الذين ظلموا ما أتروا فيه» أي استمروا على ما هم عليه من المعاصي والمنكرات ولم يلتفتوا إلى إنكار أولئك حتى فجأهم العذاب «وكانوا مجرمين» ثم أخبر تعالى أنه لم يهلك قرية إلا وهي ظالمة لنفسها ولم يأت قرية مصلحة بأسه وعذابه قط حتى يكونوا هم الظالمين كما قال تعالى «وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم» وقال «وما ربك بظلام للعبيد» .

وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُ الْمُخَلَّفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مِنْ رَحْمِ رَبِّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ

لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾

يجزى تعالى أنه قادر على جعل الناس كلهم أمة واحدة من إيمان أو كفر كما قال تعالى : ﴿ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعا﴾ وقوله ﴿ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك﴾ أي ولا يزال الخلف بين الناس في أديانهم واعتقادات مللهم ودينهم ومذاهبهم وآرائهم ، وقال عكرمة مختلفين في الهدى وقال الحسن البصري مختلفين في الرزق يسخر بعضهم بعضاً ، والمشهور الصحيح الأول . وقوله ﴿إلا من رحم ربك﴾ أي إلا المحرومين من أتباع الرسل الذين تمسكوا بما أمروا به من الدين ، أخبرتهم به رسل الله إليهم ولم يزل ذلك دأبهم حتى كان النبي وخاتم الرسل والأنبياء فاتبعوه وصدقوه ووازره ففازوا بسعادة الدنيا والآخرة لأنهم الفرقة الناجية كما جاء في الحديث المروي في المسانيد والسنن من طرق يشد بعضها بعضاً «إن اليهود افرقت على إحدى وسبعين فرقة وإن النصارى افرقت على اثنتين وسبعين فرقة وستفرق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا فرقة واحدة ، قالوا ومن هم يا رسول الله ؟ قال «ما أنا عليه وأصحابي» رواه الحاكم في مستدرکه هذه الزيادة ، وقال عطاء ﴿ولا يزالون مختلفين﴾ يعني اليهود والنصارى والمجوس ﴿إلا من رحم ربك﴾ يعني الخنيفية وقال قتادة أهل رحمة فله أهل الجماعة وإن تفرقت ديارهم وأبدانهم وأهل معصيته أهل فرقة وإن اجتمعت ديارهم وأبدانهم ، وقوله ﴿ولذلك خلقهم﴾ قال الحسن البصري في رواية عنه وللأختلاف خلقهم ، وقال مكى بن أبي طلحة عن ابن عباس : خلقهم فريقين كقوله ﴿فمنهم شقي وسعيد﴾ وقيل للرحمة خلقهم قال ابن وهب أخيرني مسلم بن خالد عن ابن أبي نجيح عن طاوس أن رجلين اختصما إليه فأكثر فقال طاوس اختلفتما وأكثرتما فقال أحد الرجلين لذلك خلقنا فقال طاوس : كذبت فقال أليس الله يقول ﴿ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم﴾ قال لم يخلقهم ليختلفوا ولكن خلقهم للجماعة والرحمة كما قال الحكم بن أبان عن عكرمة عن ابن عباس قال للرحمة خلقهم ولم يخلقهم للعذاب ، وكذا قال مجاهد والضحاك وبتادة ويرجع معنى هذا القول إلى قوله تعالى : ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾ وقيل بل المراد وللرحمة والأختلاف خلقهم كما قال الحسن البصري في رواية عنه في قوله ﴿ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم﴾ قال الناس مختلفون على أديان شتى ﴿إلا من رحم ربك﴾ فمن رحم ربك غير مختلف قليل له لذلك خلقهم قال خلق هؤلاء لجنته وخلق هؤلاء لناره وخلق هؤلاء لعذابه وكذا قال عطاء بن أبي رباح والأعمش ، وقال ابن وهب سألت مالكا عن قوله تعالى : ﴿ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم﴾ قال فريق في الجنة وفريق في السعير ، وقد اختار هذا القول ابن جرير وأبو عبيد القراء وعن مالك فيما روينا عنه من التفسير ﴿ولذلك خلقهم﴾ قال للرحمة وقال قوم للأختلاف . وقوله ﴿وتمَّتْ كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين﴾ يجزى تعالى أنه قد سبق في قضائه وقدره لعلمه التام وحكمته النافذة أن ممن خلقه من يستحق الجنة ومنهم من يستحق النار وأنه لا بد أن يملأ جهنم من هذين الثقيلين الجن والإنس وله الحجة البالغة والحكمة التامة ، وفي الصحيحين عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ «اختصمت الجنة والنار فقالت الجنة ما لي لا يدخلني إلا ضعفاء الناس وسقطهم وقالت النار أوثرت بالتكبرين والمتجبرين فقال الله عز وجل للجنة : أنت رحمتي أرحم بك من أشياء وقال للنار أنت عذابي أنتقم بك من أشياء ولكل واحدة منكما ملؤها فاما الجنة فلا يزال فيها فضل حتى ينشئ الله لها خلقا يسكن فضل الجنة وأما النار فلا تزال تقول هل من مزيد حتى يضع عليها رب العزة قدمه فتقول قط قط وعزتك» .

وَكَلَّا نَقْصُ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نَشِئْتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾

يقول تعالى وكل أخبار نقصها عليك من أنباء الرسل المتقدمين من قبلك مع أهمهم وكيف جرى لهم من المحاجات والخصومات وما احتمله الأنبياء من التكذيب والأذى وكيف نصر الله حربه المؤمنين وخذل أعداءه الكافرين . كل هذا مما نشئت به فؤادك أي قلبك يا محمد ليكون لك بمن مضى من إخوانك من المرسلين أسوة ، وقوله ﴿وجاءك في هذه الحق﴾ أي هذه السورة قال ابن عباس ومجاهد وجماعة من السلف ، وعن الحسن في رواية عنه وبتادة في هذه الدنيا والصحيح في هذه السورة المشتملة على قصص الأنبياء وكيف أنجاهم الله والمؤمنين بهم وأهلك الكافرين جاءك فيها قصص حق ونبأ صدق وموعظة يرتدع بها الكافرون وذكرى يتذكر بها المؤمنون .

وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَمَلُونَ ﴿١٦٦﴾ وَأَنْظِرُوا إِنَّا مُنظِرُونَ ﴿١٦٧﴾

يقول تعالى أمرا رسوله أن يقول للذين لا يؤمنون بما جاء به من ربه على وجه التهديد ﴿اعملوا على مكانتكم﴾ أي على طريقتكم ومنهجكم ﴿إنا عاملون﴾ أي على طريقتنا ومنهجنا ﴿وانظروا إنا منتظرون﴾ أي ﴿فستعلمون من تكون له عاقبة الدار إنه لا يفلح الظالمون﴾ وقد أنجز الله لرسوله وعده ونصره وأيده وجعل كلمته هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى والله عزيز حكيم .

وَبَلَّغْنَا غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٦٧﴾

يخبر تعالى أنه عالم غيب السموات والأرض وأنه إليه المرجع والمآب ، وسيؤتى كل عامل عمله يوم الحساب ، فله الخلق والأمر ، فأمر تعالى بعبادته والتوكل عليه . فإنه كاف من توكل عليه وأتاب إليه ، قوله ﴿وما ربك بغافل عما تعملون﴾ أي ليس يخفى عليه ما عليه مكذبوك يا محمد بل هو عليهم بأحوالهم وأقوالهم وسيجزئهم على ذلك أتم الجزاء في الدنيا والآخرة وسينصرك وحزبك عليهم في الدارين ، وقال ابن جرير حدثنا ابن وكيع حدثنا زيد بن الحباب عن جعفر بن سليمان عن أبي عمران الجوني عن عبد الله بن رباح عن كعب قال خاتمة التوراة خاتمة هود .



روى الثعلبي وغيره من طريق سلام بن سليم ، ويقال : سليم المدائني ، وهو متروك عن هارون بن كثير ، وقد نص على جهالته أبو حاتم ، عن زيد بن أسلم ، عن أبيه ، عن أبي أمامة ، عن أبي بن كعب قال : قال رسول الله ﷺ ﴿علموا أرفاكم سورة يوسف ، فإنه أيما مسلم تلاها أو علمها أهله أو ما ملكت يمينه ، هون الله عليه سكرات الموت وأعطاه من القوة أن لا يجسد مسلماً ، وهذا من هذا الوجه لا يصح لضعف إسناده بالكلية ، وقد ساقه الحافظ بن عساكر متابعاً من طريق القاسم بن الحكم ، عن هارون بن كثير . ومن طريق شبابة عن محمد بن عبد الواحد النضري ، عن علي بن زيد بن جدعان ، وعن عطاء بن أبي ميمونة ، عن زربن حبش ، عن أبي بن كعب ، عن النبي ﷺ ، فذكر نحوه ، وهو سنكر من سائر طرقه ، وروى البيهقي في الدلائل أن طائفة من اليهود حين سمعوا رسول الله ﷺ يتلو هذه السورة أسلموا لموافقتها ما عندهم ، وهو من رواية الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرَّتِّكَ . آيَةُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ مَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ

بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴿٣﴾

أما الكلام على الحروف المقطعة فقد تقدم في أول سورة البقرة . وقوله ﴿تلك آيات الكتاب﴾ أي هذه آيات الكتاب ، وهو القرآن المبين ، أي الواضح الجلي الذي يفصح عن الأشياء المبهمة ، ويفسرهما ويبينها ﴿إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون﴾ وذلك لأن لغة العرب أفصح اللغات وأبينها وأوسعها وأكثرها تادية للمعاني التي تقوم بالنفوس ، فلهذا أنزل أشرف الكتب بأشرف اللغات ، على أشرف الرسل بسفارة أشرف الملائكة ، وكان ذلك في أشرف بقاع